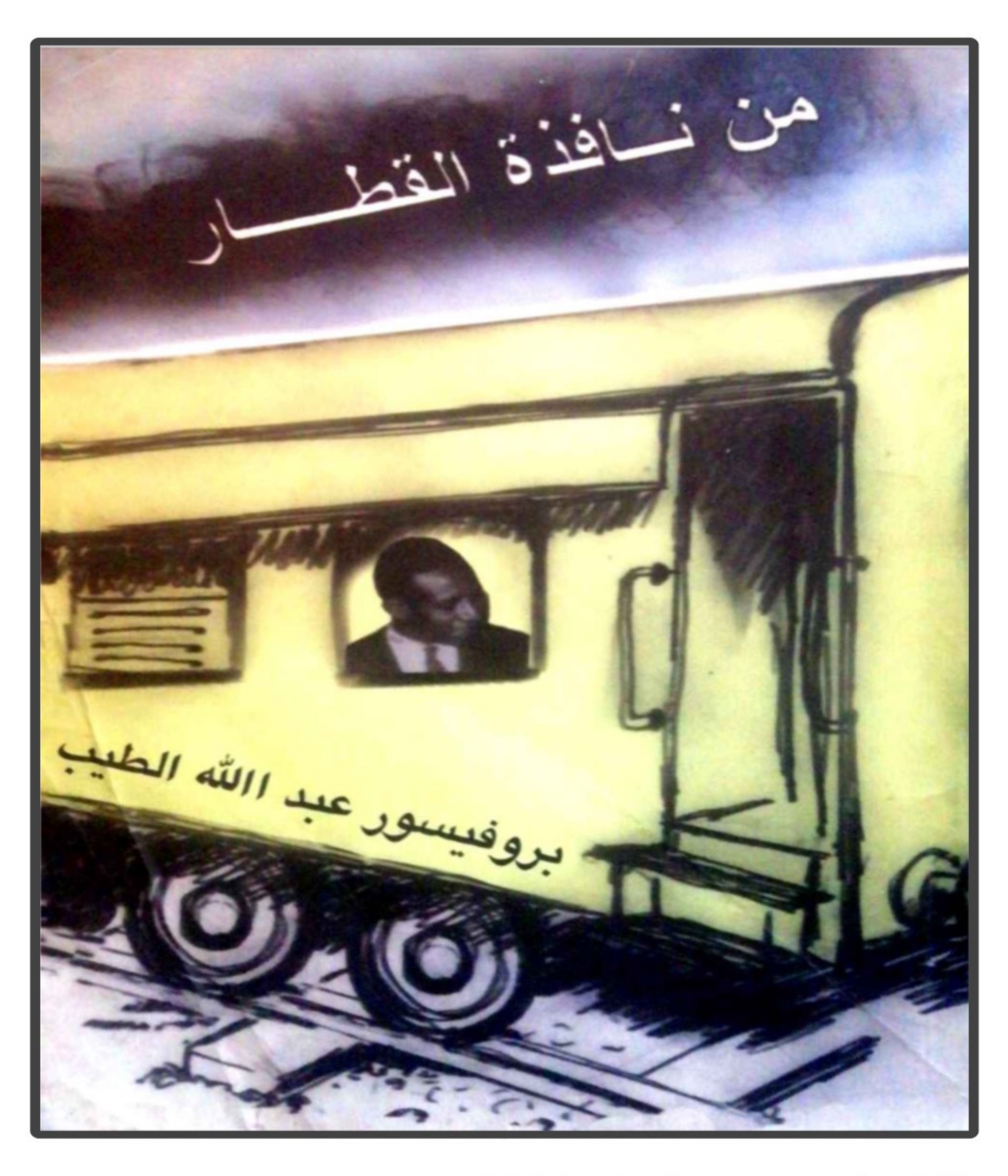
الناشر
الوقف لطباعة وتوزيع كتب عبدالله الطيب



الخرطوم : نيو لايف 2011 م

من نافذة القطار

المؤلف:

عبدالله الطيب

كل الشكر والتقدير للسيد/ صالح عبد الرحمن يعقوب

Salih Abdelrahman
Yagoub Co. Ltd.

الناشر

الوقف لطباعة وتوزيع كتب عبدالله الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وله الحمد أولاً وأخيراً وصلى الله على

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الإهداء

إلى لميس

التي بين الدوحتين تميس

وما هي إلا عادة قد ألفتها
لدى النيل بين الدوحتين تميد
هنالك أوطاني وبدلت غيرها
ألا إن أوطان الرجال قيود
ألا إن دار الفكر وهي سعيدة
لداري وإني عندها لسعيد
فيا ليت شعري هل لميس كعهدها
ولم تتبدل من لميس عهود

١٩٤٥/٦/١٢

إن إبن آدم لحريص على الحياة ، ضنين بها ، صبور عليها ، جزوع من غيبها ، ليس جهد البلاء عنده غير المـوت . فالفقـر المدقـع دواؤه الصبر ، والكدح المضنني ، والرضا بالقليل ، والتحسٌر على ما فات ، والحسد لمن نال ، والمرض المزمن دواؤه الأمل ، والعزاء منه الدمع والحزن . وهو بعدُ خير من مـوت يقطع الأسباب ، ويجعل بين المرء ودنياه التراب . لاشيء أفظـع من الموت ، ولاشيءَ أحب من الحياة . ولا حب للملذات مـن مالٍ ونساءٍ وصحة وعافية وتسلط ورفعـة جـاه ، وغزارة علم ، وتمتٌع بصديق صالح فى بلد صالح لولا أنَّ الحياة لا تتمُّ إلا بهذه الأشياء . ولولا أن الحياة التى هى وجـود فى الدنيا ليس غير ، عزيزة على ابن آدم ، ما كنت لترى آلافاً من هذه السائمة البشرية يغدون ويروحون ولايدرون إلى أين يسـاقون .

* * * * *

حجرة من طين بائسة ليس فيها نافذة ولا أثاث .
جدران وسرير كالجدران .
وغبارٌ ملء الفضـاء يتسرب مـن كـل مكانٍ إلى كـل مكـان وكأنَّ أديم المرء يَدْبغ . وكأنَّ نفسه تختنق

أو تجرُ على صخورٍ من مهواةٍ إلى مرقاةٍ وهى تئنُ أنينا ولا تجد على الضرّ معينا .

يوليو ١٩٤٥

لو ترك مقعده خاليا لكان منه كافيا .

أرسل إلينا برقيـة يأمرنا أن نحضر إلى الخرطـوم ليخبرنا أننا سنـوفد إلى بلاد الإنجليز .

لو كتب إلينا كتاباً لكفانا عناء السفر ومشقته . فلما أن حضرنا لم نجد إلا عيـا وحصَرا وصخرةً جامدة لاترجع جوابا ولا تعلم من أمرنا إلا بعض ما نعلم

وحار فى أمر ملابسنا فهو يكتب حينا إلى مكتب التموين (١). وطوراً إلى مدير المديرية . وتارة يقول :

You should apply again to the Governor

عملاً بنظريـة : ومدمـن القرْع للأبواب أن يلجا وهو يعلـم أنه سيُراد منّا السفر عمّا قليل ؛ وأن الوقت لايتسع لهذا المطال والكسل والخور والفشل . وكيف لايكون فشلاً والمرء فى حربٍ بين الأفكار المريضة المتضاربة والعقل السقيم المكدود ؟

* * * * *

(١) كان ذلك أيام الحرب وكانت الملابس قد شملها نظام التموين وكان الصوف عزيزا نادرا .

امال اسرع انقشاعا من حباب الماء أسرعت سكبه فى إناء .
فيوماً أنا منتظر « م.ع » أن يرسل ويوما أنا منتظر « أ.ظ. »
أن يقدم . ويوما أنا منتظر خروف المعارف أن يحصل على شىء
من الصوف . إنما هى حيرة وضلال . ولا خلاص إلا رفض هذه
المصاعب كلهـا .

أليس من الذلة والقلة والضيم المحزن أن يخبرنا هذا الغبىُّ الفدم
أننا غداً موفدون إلى بلادٍ صقيعها منهمر، وبردها يصل إلى العظام
وترعد منه الفرائص وهى تحت الصوف السميك ، ثم لا يهمه من
تدبير أمر إلباسنا إلا أن يُعطىَ كل منا عشرين جنيها ؟

أليس من الاهمال والخذلان والجهل والبلادة أن يكون مثل
هــذا الخروف قيِّما علينا ؟

* * * * *

لو رفضتْ هذه الرحلة لمنيتُ بشرٍّ منها من شماتة لئام طبعوا
على شر خلق وأخبث ضريبة (١) ألسنتهم أحدُّ من السـيوف ،
ونزعات صدورهم أفعل من سوارب الحتوف .

أما علم ابن ... أننا ابناء جو حار يلبسون ملابس الليل بالنهار .
وليس لهم تدبير مال فيدخر لأمثال هذه الطوارق من نوائب الحق .

إنها لنوائب يضيق منها الصدر ويود المرء لو كان دونها مغمورا .
ولعلك تخدع نفسك فتقول إنما تسرى فى سبـيل العـلم وتدلجُ
لله هذا العلم كم أطنب فى مدحه المطنبون . وأى مزية للعلم وربه
كانع (٢) راكع لا يطعم إلا الذل والأذى والحـزن ؟ وأى مزيـة

(١) ضريبة : طبيعة .
(٢) كانع : خاضع ذليل ههنا .

للعلم فى بلد يسود فيه الحمقى ويستعلى الجهلاء وينال الغنى كل كلـب ! •

هـذا « هـ • ك » يقول لى كم وفرت وأنا أراوغـه وهـو يحاسبنى حسابا عسيرا • ولو كان أخا رأى وفكر لكان معينا على ضراء العقل • ولكنه لم يخلق للتفكير والمشاركة فى العاطفة، وما هو إلا أمىّ تخرج من المدارس العليا التى تخرج منها أميون كثير •

١٢ يوليـة ١٩٤٥

آه آه ، وأوه وأوّ اه وأحأح ، وحسّ حسّ ، وكـل لفظة قالتها العرب للتوجع والتألم • هذا والله هو الجزع • وإنى لأذكر قول الشنفرى :

بـكى وبكـت ثـم ائتسى بَعْدُ وائتسـت
مراميـلُ عزّاهـا وعزّتـه مرمـل
شكا وشـكت ثم ارعوى بَعْدُ وارعـوت
وللصبْرُ إن لم ينفـع الشـكوُ أجمـل (١)

ثم أعود فأذكر قول الآخر :

ومانالها حتى تجلت وأسفرَت   أخو ثقةمنى بقَرْض ولافرض(٢)

• ووالله لا أظنه إلا كاذبا • والله لو وجـدت سبـيلا إلى قرض لاقترضت•وقد عزّ الفرض فى هذه الايام مع الرأسمالية والمادية•

---

(١) هذا من ابيات الحماسة ، والفرض العطية . اى انه صبر للنائبة حتى انجلت ولم يستعن عليها بقرض او بعطية يستجديها .

(٢) يصف الشنفرى ذئبا جائعا يعوى وذئابا جائعات يعوين . فبكين لما بكى . ثم اسين به فتعزين لما تعزى .

ومن هم حتى أعنّى نفسى بهم ؟ فليموتوا بغيظهم فإن غيظهم ملهاة عندى أتسلى بها وقد علمتنى صروف الليالى كيف أخلق من الحزن فرحا ومن المصيبة مرحا . فالحمد لله الذى خلقهم فى هذه الدنيا وخلقنى ، وجعل قبحهم مادة أصور بها الجانب المظلم من الدنيا فى غير ماتحامل ولاتزيّد . أطال الله بقائى فى عافية ورغد .

* * * * *

مرت علىّ هذه الأفكار وأنا ضيق الصدر بالدار والغبار ويذكر « د » وهو يحسد « م » ويغتابه وينافسه ويعتد عليه بأنه فاته فى امتحان أو اثنين لما ذاكر من سخافات ... ثم يطلب بعد ذلك أن يكون له صديقا .

ثم ينساه إلى زاوية مظلمة من زوايا العقل الباطن . ولعمرى لقد عاش لو كان هذا عيشا .

* * * * *

كأنى أنظر إلى جلده الأسود الأسود ، وأنفه الأقنى المحدودب وجسمه الضئيل ضآلة الرقشاء ، وعينيه ، وصوته الخافت ، وشعره الشائب .... إنه لبائس .

* * * * *

كأنى أنظر إلى المحطة الوسطى
حيث ترى الخواجة وقميصه ذا الأكمام المربوط عند زنده ، وبنطلونه الرمادى ، ومشيته التى كان فيها قزلا (عرجا) وتكشيره

بين آن وآن كأنه على الزوار غاضـب ، ثم الكراسى التى كانت فى عهد مضى منسوجة بالخيزران . أما الآن فهى مـن الحبال ، ثم القهوة التى كأنها تفل والتمر الهندى الأحمر .

وجلسة كل يوم عند إحدى الساريات.وزائر يقوم وزائر يقعده. وأسئلة وأجوبة . وحيرة وسأم . و (أ.ع.س) يتحدث عن بيعه وتجارته وما يعروها من رواج وكساد . و (ر.ق) لاصق بالكرسى كالقـراد .

* * * * *

إن الْجَمَالَ الدَّمِثَ الْمقْتَيِل	المستهام الأَريحـىَّ الثَّمِلُ
تيمنى لكننى أكتـم الـ	وجد وقلبى جمره مشتعل
أهـواه كالزهـرة رفَّافة	تبسم فى روض نضير خضل
لَدْنُ الصبا يسطع فى حلة الـ	حسن كما يسطع بَرْقُ الأَمل
هدلت يد النعمة أغصانه	واسكرتها من حيـاء ودَلّ
تحيـة الشـوق مناجاته	إذا تهـادى ونسيم الغزل
ليرنو له القلـب فيبـدى	حُلْمُ الأمانىّ طيوفَ القُبَل

* * * * *

يونية أو يوليــة

لقينا فى محطة ... ونحن إلى الخرطوم لنستعد للندن زَعَمْنناه وسره أن يتحدث إلينا .

ـ تحتاجون إلى بركلافا وقلقز وبالطو صوف وبالطو مطر ...
وأخذ يعدد أصنافا ليرينا تجربته وحذقه وتمرسه بالمدينة وليشملقنا إذ عنده أنا ممن فاز لأنهم أختارونا لنذهب إلى لندن . وليحســدنا ويشعرنا أنه يحبنا لو الحسد والحب يجتمعان فى قلب واحد .

قــال أبو الطيب :

فلشدّ ماجاوزت قدرك صاعدا   ولشد ما قربت اليك الأنجم
يؤذى القليل من اللئام بطبعه   من لا يقل كمن يقــل ويلؤم
والذل يظهر فى الذليــل مودة   وأوّد منــه لمن يودُّ الأرقــم *

يوليــو أو أغسطس

الريف المصرى رائع ساحر . لم نر شيئا كهذا من قبل . كان شعورى به فجائيا وانفعالى إزاءه انفعال عجب وإعجاب . واتفق أن أول رؤيتى له كانت فجرا عندما يقترب القطار من أســنا أو يتجاوزها . وكان عليه الندى كأنما خرج من ديماس (الديماس الحمام وجاء هذا الحديث فى صفة سيدنا عيسى عليه الســلام) . ولبالأمس ما كنا فى رمال حلفا وصحراء العتمــور . كان زمــن الفيضان . وكان السفر بالباخرة بين وادى حلفا وأسوان من المتعات المرتقيات (انظر رسالة الغفران ـــ اللذائذ المرتقيات) إذ كنا جميعا

بالدرجة الأولى.وكان العاملون مخلصين حقا فى خدمتنا ، يظهرون بذلك شعوراً وطنيا إزاء هذا الفوج الأول الكبير من « أفلاذ كبد البلاد » كما تقول بلاغة الصحافة . وفى أسوان ركبنا الدرجـة الأولى بالقطار ولكنها لم تكن مريحة إذ كنا ستة فى قمرة . وكان معنا جندى إنجليزى . وكان ساخطا أيما سخط.وأحسب أن الغبار قد ضايقه وأفسد عليه مزاجه فقال لهذا القطار حسنة واحدة ، إنه يوصلك القاهـرة .

* * * * *

أول عهـدنا بمدينة ضخمة

إن الخرطوم لحلّة" كأطلال سعدى فى قفار ملس .

زعم الدكتور زكى مبارك أن سينية شوقى كسينية البحترى أو أجود . لقد والله تعصب وأساء .

كنا نهم بقطع « سليمان باشا » ونحن خائفون . وكان (س) يلبس كسكتة واقترح ركوب التاكسى جزءا من مجابهـة الحركة

ــ تاكسى تاكسى

صاحها بتعمله وتقعره ووقف التاكسى وركبنا وركب بكسـكتته وإذا ببعض التلتوار يعلق بصوت مسموع :

ــ البرابرة عاملين خواجات .

* * * * *

جاءنا أحد الوجهاء أو أحدان من الوجهاء للحفاوة والترحيب ومحاولة تمديننا . ووضعنا فى عربة بص . كنا نرى عربـة بص

فى الخرطوم تحمل طلبة الكمبونى المسيحيين ونعدها من ركائب المدنية . فالآن قد ركبنا بص . (لترونّ الجحيم ثم لترونها عَيْنَ اليقين ثم لتسألُنّ يومئذ عن النعيم) قال الشيخ فسر النعيم بالمـاء البارد .

وذهبنا إلى مقهى ليلى بالقاهرة ووضع لنا صف واحد من « الطربيزات » فى وسط المقهى وكنا صفا واحدا دُكّناً إذ كان كل الحاضرين شقرا أو هكذا لاحوا لنا . وقال لنا أحد الوجيهين (أحسبهم بلغوا الآن ثلاثة أو أربعة) .

ــ ستروْن نمر (جمع نمرة أى رقم)

وما فهمنا . ثم بدأت النمر . بنات شبه عاريات أحيانا . وبنت تغنى ولا تقدر أن تتبين جمال وجه من قبحه . ولكنا كنا مشدوهين ونعلم أنا نشاهد صميم المدنية .

ليت شعرى عن ابن بطوطة الذى اجتهد أن يكسو عاريات النساء فلم يستطع وأوشك أن يأكل الخنزير فى بلاد الروم ... فى حديثه عن الخاتون التى كانت تأكله وتشرب النبيذ تطلع مريب... « أوهمتنا فيك رفْضاً » ياسيدنا ...

أهدى لنا علب طحنية لكل واحد علبة . « دَرْوَشه » . أو بين مكر وبخل . وكانت حقائبنا مليئة بالهدوم الجديدة النظيفة. وإذا وضع المرء فى حقيبته علبة طحنية فلا شك أن زيتها سيتسرب إلى أكمام القمصان وياقاتها فضلا عن الجاكتات من الصوف النادر. كان أحدنا قال للتاجر الأفرنجى ــ أى الذى يعمل فى السوق الأفرنجى ــ بالخرطوم :

أو الراقصات فى النمر إن شئت أن تتمدن وتكفر وتصير إلى جهنم وساءت مصيرا .

جاءوا يقصون علينا ثلاثتهم أو أربعتهم كيف زاروا صالة رقص وقعدت معهم من ظنوها فاتنة والاستملاح تعود" طول السـواد وقرب الوساد . وجعلت تقول سيدر سـين بكسرة مشبعة ودال ساكنة وراء ساكنة والسايدر زعم هازليت أو أحد المحشين على هامشه أنه شراب صلب ، وهذا جلى أنه ضعيف . ممزوج بماء. ليمونـاده ! !

ــ انا بحمد الله لا مشيت التياترو ولا شربت الليموناتى

ــ الليموناتى ماله يا عمى الطاهر كمان حرام ؟

ــ ماهو حرام علا (إلا) خايف تعجبنى نفسى أكان شربتـه

ــ فشر أنا أجيب لك رومى ، دا بغبغان بمية وخمسين أهيف ويدفعون عن كل زجاجة سيدر خمسة وسبعين قرشا حتى صرفوا فى ساعتين قريبا مـن عشرين جنيهـا . ياللصوصية السـيدر . ويالغباوتهم .

وذانك ذهبا إلى حديقة الحيوانات ليتغديا

ـــ يابا دى اللامـــة

لام لامة • نون نعامة • وهى مثل الجمل • وقالت ماء • ونادى به ماء بالإمالة فى شعر غيلان •

ـــ يابا قالت مىء متل العز

سل يلذرا ذات القصـــور هل جاءهـــا نبـــأ البدور

وفى الكتاب كانت كلمة الزنا والتلامذة كلهم يعرفونها وهـــو لايعرفها وهو لابد أن يعرفها

ـــ فنـــدى الزنا يعنى شنو ؟

وضحك الأولاد • وكان المدرس أباه• « الله يهديك ياولدى » ونزلوا بهزيع ليلة البارحة عند بنى عمهم بالخرطوم الجديدة وجىء لهم برغيف بلبن وسكر • ويذكر الضحى إذ ذهبا للفوّال فأكـــلا فى مجموعات من الناس على طربيزات كأنها فصول المدرسة فولا فى صحون صغار وجرجيراً ، فولا فطيرا أى قليـــل الملح • وقطعا ساحة غيراء بأمدرمان بيوتها طين ولا خضرة بها وأكلاعندأقربائهما مكرونة حمراء طاعمة • وركبوا القطار وقال أحد الكبار بالقمرة وكانت عينه توجعه أنا يتيم • « أنت راجل كبـــير كيف تكون يتيم » • «أيوه تمام » • «جدا جدا » • دق دق دق دق • ونادوه بإشارة • أبوك خطر • وقالوا له سندوه على الحمار ويقدر اليوم يقعد•ووصل •وسندوه••وكانوا حوله يقرأون يس•وكان ناحلا لا

يتكلم . وشخص ينظر . وكان هو قد وصل من البلد البعيد جدا ليجد عمه وابن عمه يعدان أباه للقاء سكرات الموت وكان ولد أبيه الواحد لا أخ له ولا أخت وماتت أمه منذ دهر . ولما وصل ورآه أبوه وكان لا يتكلم نظر إليه وتكلم : « ود حلال » ومات قرير عين . شخص إليه الآن كما كان شخص إليه أبوه . ولم يتكلم . عرفته عيناه . باركته عيناه . كانت له فيه آمال جسام . كان يقول له أنت ستحلق كاريه وتسافر لندن أو أوربا وعلمه ستآلاف مسألة حسابية،واللآلىء السنية ولولا يزيد وأيام لنا سلفت يا مائل الرأس إن الليث مفترس رمى بك الله برجيها فهدمها وكتاب حفنى ناصف وجاءوا بفراريهم زرافات يبكون

ـ الخلا والريح تشيل إلى ورا

ونصحناهما ألا يفعلا . ذلك لأن للحيوانات شذى يحول دون. الاستمتاع حقا بالأكل

وجاءهما سفرجى قصير دحداح ذو وجه كرغيفة

ـ عندنا رز بكبد الفراخ

كأنها قذيفة مدفع ؛ « الكرسه !! » (تعجب أى الحربة)

ـ يا جدى عبد الماجد ود حمد (وهو جد الغبش فى طبقات ود ضيف الله رضى الله عنه)

ـ ماذا أكلتما

ـ رز بكبد الفراخ ، سبعة وعشرين صاغ

وكان ثمنه غير البخشيش سبعة وعشرين قرشا ونصفا ولكن نسيا موضع النصف فى اللهجة المصرية فحذفاه

* * * * *

أغسـطس

فى بورسعيد وابور ضخم يدعى « سبجاك » هولندى ، يسير الآن تحت إمرة ضابط بريطانى ويحمل ثلاثة آلاف من الجنود . وهبطنا سلما وصعدنا آخر .ومررنا بقمرات الدرجة الثانية . وكانت تذاكرنا الدرجة الثانية . ولكنا تجاوزناها أو جعلنا تتجاوزها . وكنا نيفا وعشرين . وكان معنا نيف وعشرين إثيوبيا فكنا خمسين على فرض أن النيف خمسة . وكان قد أعد لنا عنبر من الخيش فيه سراير معلقة . قص علينا أحد إخواننا الذين سبقونا إلى ذلك المكان قصة شجار وقع بينهم وبين الصولات الإنجليز إذ كانوا هناك .

أول ما دخل « ل » وكان شابا حدثا لقيه « صول » كريه واعترض سبيله «هذا مكان معد للصولات لا للزنوج» واستعمل كلمة نقرز (NIGGERS)

وصفى الموقف بعد شكاوى عراض

ولأن تذاكرنا ثانية سمح لنا باستعمال « الصفرة » والحمامات وبيوت الأدب .

وكانت الصفرة ذات رائحة بحرية نكدة

ووقف الضابط يشرح لركاب الدرجة الثانية وكان المتزوجون منهم فقط فى القمرات والباقون فى عنابر الخيش

ـ معاملة خاصة للمتزوجين من أجل السيدات والأطفال أعطوا القمرات • لأن الوابور مزدحم • ولابد من الدقة والنظام • كـل الغرف تكون مفتوحة • سأمر نصف الليل وسأضطر لفتح كـل غرفة تكون موصدة • وهذا لن يكون بهجا ••• إن فتحنا غرفة فى نصـف الليـل •

وكان يتكلم بطريقةالشفة العليا الناشفة والسفلى وحدها تتحرك على مذهب الكولونيلات المعروف فى الجيش البريطانى •

ـ هذا الوابور ناشف • إن شاهدتم الضباط البحريين يشربون فهذا لا يستغرب لأن هذا مسكنهم • أما لسائر الركاب فالوابور ناشف • يوجد الشراب الناعم بالبار فى سـاعات محدودة ••• أيضا الشاى والقهوة فى الساعة الحادية عشرة • وتمارين العوامات فى الساعة التاسعة ـ وهلم جـرا

وبعد يومين شكا أحد الضباط من أن أحد السود ذهب كالناس فى الحمام•وثار بعض كبارنا وتولوا الدفاع عن قضيتنا مع الضابط• وكنا نحن والاثيوبيون صفا واحدا • وكان معنا تركى لا يعرف الانجليزية ولا العربية • وانفضح كذب الشاكى • وقد كان جماعة مـن الصـولات يحسـدوننا على الحمـام وبيـوت الأدب اذ قد كان للجنود نظام خاص لكل ذلك ، فيه خشـونة بالغة • وشدما جزعنا أول ليلة إذ ظننا أنه مراد منا أيضا أن نستعمـل مرتفقات الجنـود ولكن الله سـلم •

واكتشفنا بعـد أيام أن الطحنية تستميل بعض قلوب الافرنج . إذ صار من طريقها بعض الصولات أصـحابا لنا . وكان أحدهم مسكين الوجه كالعنز جعل يقص لنا عن أهله . وقد كان البرد فى عنابر الخيش والرطوبة معا أيما مؤلمين . فجعلنا نسأله عـن برد انجلترا وخطر الالتهاب الرئوى . مثلاً قرأنا أن الملك أو الأمير كذا غسل قدمه ولم ينشفه بالبشكير فأصابه برد فمات . وجعل الصول الطيب يحدثنا عن حمام الخردل وفوائده .

وقال جماعة من الإخوان لقد كان فلان صالحا حقا حين أهدى لنا الطحنية وهذه بركتها قد ظهرت والله تعالى أعلم .

كان خليـج بسكاى مرا وصبرنا عليه

واقتربنا من إنجلترا . ولاح الساحل أخضر والمبانى منتشرة فيه وكان يوما مشمسا . ووقفنا ننظر مأخوذين مفتونين . ودنا الرصيف ورأينا رجلا أمامه نار وشيء كالقدر يعالجه . كان مـن عمـال الطرقات يوقد على قدر من القار ولكننا لم نعلم ذلك ـ (القـار أى الزفت) ـ

ـ شوفوا ، إنجليزى بسوى له فى شاى .

أى انظروا ذلك إنجليزى يصنع شايا . حسب المسكين أن الإنجليز يصنعون الشاى بالكفتيرات والحطب كما تفعل فى السـودان وراعه أن يراهم يصنعون .

ونزلنا على الشاطىء الإنجليزى فى سوثهامبتن . وقيل لنا قطار لندن بعد ساعة أو دون ذلك قليلا . وخرجـنا نتمشى فرأينا الترام ذا

الطابقين • ثم رأينا كشكا يبيع الشاى • فلما طلبنا الشاى وجدناه مرا جدا وقد اعتدنا شراب الشاى حلوا

وركبنا القطار إلى لندن • وإذا الريف الإنجليزى بوهاده ونجاده الخضر • لم نر شيئا كهذا من قبل إلا فى الصور

ووصلنا واترلو • وإذا بنساء ضخمات يدفعن أمامهن عربات صغيرات قيل لنا هؤلاء عتالات • لن والله يطلب من إحداهن أن تحمل شنطته فيسمع أهله الشوس بالسودان أنه استأجر عتالة «ستا» لتشيل له شنطته ياللعار • وكان يصطنع المروءة ويدعى التمسك بفضائل القرويين السودانيين وهذه خلة ينتحلها كثير من الناس وقد أفسدهم لين التحضر حتى لم يبق لديهم من فضائل القرية إلا الجلافة • وشر شىء حضرى لين يتجالف كصادية ابن دريد

جَيْنفَرَ الوهاب أوْدَى به   دَهْر على هَدْم المعالى حَرِيص

انظر إلى العنت الرازح فى « دهر على هدم المعالى حريص » كأنه لايهدم غير المعالى •

وكبائية شوقى

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب والحق أغلب وأيان تضرب كل اولئك زوائد وأخذ أيان من قوله تعالى يسأل ايان يوم القيامة ووضعها فى غير موضعها

وركبنا عربة تكسى إلى ربة دار « بيلهم »

هل تذكر الدار بأعلى ذى القور

قد درست غير رماد ممطور
وقد قطرت من عينه دمعة حارة عند الوداع
وكتبت إليه واقتبست قطعة من شكسبير
وأرقني ليل وشك الوصال أني نُودِيتُ كيْ أدّلج
وأني هجرت شكاة الفتاة لأصعد عند القطار الدرج
وقد نثرت عطرها المستجاد مع القبلات التي تنفرج

* * * * *

أحب القهوة أحب الشاي
أحب اليافا يافا التي تحبني
الشاي والقهوة
واليافا وأنا

فضحكنا لنكون أصحاب فكاهة مع أنفسنا وضحك وهو مغيظ . وكان ظاهره هادئا رقيق ظاهر الحاشية ونبئت أنه اشترى من تموينه للحلوى (وكان كل شيء مما يؤكل آنئذ ببطاقات التموين ـ إلا ـ لا أحقق ذلك ـ السمك) قطعا من الشكولاته ثم رأى صبيا له عينان تبصان . وكان صِبْيَة" من قبل قدتصايحوا به « بلاكي » ورأى عيني الطفل كأنه كان منهم فتلطف إليه كالهر واستدرجه حتى ناوله الحلوى ولما ناوله الحلوى قبض بيده وقرص أذنه حتى جحظت عيناه . أتقولها مرة أخرى .

وكانوا يمشون ثم هموا ان يعبروا الطريق وإذا بسيدة معها ولدها يسايرها وإذ به يصيح (مم عايني نايتقز) والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

* * * * *

كان (م٠ع٠) صاحب مطعم بشرق لندن ٠ وكان مهما جـدا بالنسبة إلى العرب بوجه عام ووادى النيل بوجه خاص ولا سيما ابناؤه الذين كانوا يعملون بالإذاعة ٠

ذلك بأن «ميم‌عين» هاجر من إسكندرية منذ زمان بعيد،حتى‌إن لغته قد كانت شيئا غامضا ، حرف انجليـزى ، وآخـر عربى ، بلهجة لا مصرية ولا سودانية ولا ذات لكنه ، وحرف ثالث لعله فرنسى ، لأنه قد ذكر أنه زار فرنسا فى الهاڤر وأخبره فرنسى كان يعمل فى موتور طلمبة أن الإفريقيين « مخ مافيشيه » ـ آكسانت٠

واستقر به المقام فى شرق لندن٠وصار له مطعم‌زبائنه الجمايكون وسواهم من البحارة الملونين ٠ واكتشف بعض غير البحارة مـن أبناء النيل مطعمه ٠ فكانوا يزورونه كل جمعة ، ويعد لهم حجرة جلوسه الخاصة ٠ وإنما كان كل جمعتهم يوم الأحد ٠ وكان يفرش لهم طربيزته المستديرة ٠ ويوضع عليها الخص والبنضورة والبصل على نظام السلطة البلدية ٠ ويذبح ديك أو تذبح دجاجة أو يجاء بأحدهما مذبوحا من يهودى «وطعام الذين أوتوا الكتاب‌حل‌لكم» ونصارى الأفرنج يخنـقون الدجـاج والبط والإوز والرومى٠ والطواويس يخنقونها فى هولندا ٠ والمنخنقة مما حـُرّم وللأوربيين فى قتل الحيوانات أساليب منكرة٠منها الطعن بآلة حادة فى‌الرأس، ثم يقطعون رؤسها من وراء ٠ وأكل الـمُجَثّمة حرام ٠ وروى عن محمد بن يزيد المبرد أنه أول مادخل خراسان سأله أميرها عن الشاة المجثمة ، فلم يعرفها فى قرارة نفسه ، وكره أن يعترف‌بذلك، فقال : هى كالشاة اللّجْبة أى العجفاء وانشد مستشهدا :

لم‌يَبْقَ من‌آلِ الحُمَيْدِ نَسَمَةْ إلا عناقٌ لَجْبَةٌ مُجَثّمة

هـذا ؛

وتوفى (م٠ع٠) ذات يوم . واجتمع البحارون من زنزبـار ، ومن سود العرب وحمرهم ، ومن عجم المسلمين وبعض الإنجليز واليهود.وجاءت نسوة يبكين.ووُضع الصندوق الذى فيه الجنازة للصلاة . وأحاطت بما قبل الصلاة طقوس وثنية فى جهر رهيب من بعض السواحليين . ثم كبر الإمام فحطم الأصنام . وبعد الصلاة وضع الصندوق فى تكسى ليحمله إلى مقبرة المسلمين بوكنج . رحم الله (م٠ع٠) رحمة واسعة .

أكتوبر ١٩٤٥

ضقنا ذرعاً بالسمنارات .

وكان يحضرها معنا مفتش تعليم من جزر الهند الغربية ومفتش تعليم من جنوب نيجيريا . وشكوت إلى صاحبى ضياع زمننا . فلامنى على عدم الصبر ، وكان أعقل منى . ولم أطعه فشكوت إلى الأستاذة ، فنظمت لنا عدة زيارات لمدارس فى نواحى لندن . منها كانت مدرسة هـ

ركبنا إلى هـ بص .... من ماربل آرش . وزرنا المدرسة اياما متواليات وكنا نتغدى فيها . وكان صاحبى قد استثقل ناظر المدرسة الطويل والمدرسة الأُولى والمدرسة الثانية.أما انا فلم أبلغ أن أكوّن فكرة عنهم . وكان مما دلنى على استثقال صاحبى للناظر أنه كان يقول : « إنه فرح جدا بالغداء . انظر كيف يأكل بشهية على رداءة الأكل لا لشىء إلا لأنه بخمسة بنسات ، ويمتن علينا فى فرحه لأننا نجد أكله بالمجان أصل ثمنها ثلاثة بنسات . »

وكنت لا ارى معه استثقال المدرسة ولا الناظر على وجه الاطلاق، ولا سيما المدرسة الثانية .

وإنتهت فترة هـ وابتدأت السمنارات مرة أخرى وكتابة المقالات عما جربنا . إن المدرسين أسوأ ما يكونون حين يتحدثون عن التدريس . وقد كنت وصاحبى سبقت لنا تجارب تدريس مع أصناف من الأطفال والأولاد . وكان سائر الذين نلاقيهم فى السمنارات بالنسبة إلينا لا يعلمون شيئا . إلا سمنارات الأستاذة فقد كانوا مجربين بلا عقول .

« شين » مثلا كانت له عينان كالضفدعة وعقل الضفدعة أيضا .

وكان « ك » حاذقا لبقا مثل فلان ممن غادرنا وراءنا بالسودان .

ولكنى كنت أرى فى سمت وجهه نفاقا كثيرا وانتهازية عميقة ونجاحا مؤسفا كأصناف هذا النجاح الكثير الذى ترتفع به قيم متوسطى الذكاء لدى أذكياء المفتشين الانجليز .

مثلا السير دوجلاس نيوبولد كان ذكيا لاشك فى ذلك . ولكن عقليته الحاكمة لم تكن تزين له إلا أن يعجب بالقردة أو المستقردين تجاهه من السودانيين . أما القردة فمقلدوه ومقلدو أضرابه ضربة لازب ، وأما المستقردون فكانوا صنفين : صنف ذكى يريد أن ينجح ماديا بأى ثمن . وصنف غبى يستملحه هذا الصنف الذكى.

وذهب الناس ليصلوا على نيوبولد وقرأت قوله تعالى «ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » وانبرى لى زاجر زابر يحذرنى العواقب ولعله يكون قد وشى بى فى الذى قلت والله أعلم: « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعضَ الظن إثم ولا تجسَّسوا ولا يغتب بعضُكم بعضا » ـ صدق الله العظيم .

نوفمبر ١٩٤٥

شــكوت إلى الأستاذة ضياع زماننا فى لا طائل مرة أخرى •
وجاء الكرسماس ولأول مرة سمعت باليوم المسمى Boxing Day
قرأت ياترى عنه من قبل ؟ لابد ، ولكن لم أكن أفهم ما يــراد •

ذهبوا إلى الحانة التى فى آخر الشارع « إر » ونظر أحدهم إلى خادمة الحانة فحادثها فقالت إنما نحن من طبقة عاملة•فاستحلى أحد من كانوا معهم كلمة طبــقة كما نطقتها امريكانية المدة (كلاس) وهى إنجليزية • فكأن جميلا أصاب من بثينة نظرة •

وعند أول الفصل الدراسى ذهبنا إلى مدينة « ر » لنزور مدرسة نقيم فيها أسبوعين عسى أن نستفيد فيزيل ذلك شكواى • وكانت من مدارس الكويكرز • وكان المقام فيها نعم المقام •

كنا فى منزل من منازل المدرسة • أعدت لنا حجرة كأحسن ما تـُعَدُّ حُجَر المدرسين القاطنين بالمنزل وكانوا أربعة • وكنا نفطر صباحا جميعنا مدرسين وتلاميذ • وربة المنزل فتاة حسنة المنظر لما تتزوج كأنها بسبيل أن تصير عانسا •وربة المنزل شىء بين الإدارية والمدرسة • وكان المدرس المشرف يجلس على رأس الخوان الكبير والآنسة العانس على الطرف الآخر • والمدرسون من عن يمــين المشرف ويساره•وكان الطعام جيدا كأن القوم لم يسمعوا بتموين لندن إذ مدينتهم زراعية بها سوق زراعية • هكذا قالوا لنا•وكانوا

يبدأون صباح الدرس بصلاتهم • يجتمعون فى قاعة فيصمتون•ثم أحدهم يستشعر أن الروح حرّكه فيتقدم إلى الإنجيل فيقرأ منه• قرأ أحدهم قصة جونا ـ أى يونس ـ مرة•والتى فى القرآن أفضل أداء منها إذ فيها كالتحليل لشخصية يونس « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمـات ••••••• » ولا تحسبنّ أن القرآن نظر إلى الإنجيل فنقل منه كما يقول بعض الإفرنج المستشرقين من أمثال أسين • فالراجح عندى أن الإنجيل (بل أعنى الكتاب المقدس بانجيله وتوراته وزبوره وعهديه التليد والطارف) نظر إلى القرآن فأخذ منه وهذا قد يبدو غريبا عجيباقال الشـيخ محمـد المجذوب بن قمر الدين رحمه الله ونفعنا بجاهه :

حضور إذا غبنا وغيب حضورنا

وذا عجـب فليعجب المتعجـب

وعندى مع الذى أحسنته من جد الكويكريين وصدقهم فى سمتهم وصمتهم وحين يقرأون وحين يُخبتون إلى الاستماع تكاد أعينهم تفيض من الدمع ، أن عبادتهم مع هذا فيها نـوع مـن صنعة وضرب من تظاهر بالفهم أمام الله « إن الله غنى عن العالمين» إذ بدا لى كأن الكويكرى يقول : « يارب أنا أفهمك تماما • أنا وأنت على مستوى رفيع لا يصلح مع هؤلاء العوام » • والعوام على هذا يكونون سائر الناس غير الكويكريين • ولايخفى ان مثل هذا التفكير ضحل• لأن التصوف الذى يدعى فهم الله والتفاهم معه مسألة فردية بحتة لاتخلو من الجنون•لا يعنى هذا أن المرء لاينبغى له أن يبتهل إلى الله ويسأله ويجأر إليه•إذ ليس فى ذلك تقرب فردى

على معزل من سائر خلق الله فى خلوة خاصة ، وإنما فيه لجوء ـ واللجوء علانية أو ضرب من علانية ـ واستسلام ودعاء خالص وإن شاء الله أجاب • وأحسب أصحاب وحدة الوجود يشيرون إلى معنى من هذا إلا ان اصحاب وحدة الوجود مما جرّدوا الذات تجريدا يخرج أو يوشك أن يخرج بها عن صمدية الله إلى معنى من معانى القوى الذريّة المنطلقة المنبثقة فى الكون فى غير ما أول ولا آخر • وقول الله تعالى فى صفة نفسه تعالى أنه « الأول والآخر » ينفى هـذا كما ترى • وقال تعالى وهو سر ماذهبنا إليـه آنفـا وجوهره : «وقال ربكم ادعونى أستجبْ لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنّم داخرين » •

وأحسب أن النصارى على اختلاف فرقهم ومعتقداتهم يشتركون فى الذى أخذنا على الكويكريين من طلب التزلف الفردى إلى الله من طريق النبوة والضحية فى سيدنا عيسى صلوات الله عليه• وقدفطن كلا المتنبى والمعرى إلى جانب الضعف فى كلا المعنيين • قال أبـو الطيـب :

ويَستَنْصِران الذى يَعْبُدان وعندهما أنّه قد صُلب

وقـال أبو العـلاء :

وما أبهـوا وقد جعلـوه ربّا لكيلا ينقصوه ويجدبوه

وفى القرآن : « وماقتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم•» وفى هذا من التنزيه لسيدنا المسيح صلوات الله عليه ما ترى•وقال بعض

المفسرين : ألقِيَ شَبَهُه على أحدمن كانوا معه ليلة العشاء الأخير ٠ وقيل أُلقِيَ شَبَهُه على يهوذا الأسخريوطى ، والله أعلم أى ذلك كـان ٠

ولا أكاد أشك أن أمر القيامة قد شُبِّه للمرأة وصاحبتها إن صحت الرواية عنهما ٠

قريب من هذا أمر البيان عندنا ٠ تزعم امرأة مثـلا أنّ وليّاً بِعينِهِ تبين لها فى موضع كذا ، فتفتعل تربة وأحجارا ورايـات ويصير كل ذلك مقاما يزار ٠ وفى البلاد الأسلامية مقامات مـن ضرب هذا كثير ٠

وفى مقرات بيان لأبينا آدم وأمنا حواء ٠ مرحلة بالراحلة ٠ لأن سيدنا آدم عليه السلام كان طويلا جداً ، وأمنا حواء كذلك ٠ وينبغى أن شجرة التفاح (على هذا التخيل) كانت أضعاف نخلة الجبّار التى بصحراء مراكش أضعافا مضـاعفة ٠ والتفاح ليس بمذكـور فى القرآن وإنما المذكور شجرة ٠ فإن كان سيدنا آدم نزل الهند فهى «أنبجة» (منقة) ٠ وإن كان نزل أرض بابل فهى من نخل البصرة أو البرنى والآزاذ الذى جاء فى شعر المتنبى قافية الذال ٠ وإن كان نزل فى شرق إفريقية فالله أعلم أى شىءٍ كانت ٠ وماكانت لتكون التفاح باية حال ، إلا على تقدير أن الجو فى شرق إفريقية كان كجو بلاد التفاح اليوم ٠ اللهم إلا أن يكون قد نزل سيدنا آدم بجبـل كلمنجارو وهو عالٍ تكلله الثلوج ويجوز ان ينمو فيه التفاح والتين والزيتون والفراولة جميعا وغيرهن من أشجار المدنية الكتابيـة ٠

وفى فتـوار

على مقربة من شاطىء النيل الأيسر شمال مدينة بربر مقبرة «أب بشر» وابنته «بشرية» ،صالحان وفدا من المغرب فيما زعموا . ذكروا أن «أب بشر» كان قد جاء حَجَرةَ النيل قبل المغرب وفرطته المركب (هكذا فى لهجة الجعليين أى فاتته المعدية . وفرطته فصيحة جدا) . وكانت قريبا . فصاح بالناس فلم يردوها إليه استصغارا لأمره . فوضع فروته على الماء ووضع ابنته معه فإذا هما يشقان الماء كاللنش بلا موج ولا تيار ولا اذى كما تفعل اللنشات . ووصلت المركب وأقبل من فيها على الولى الصالح يتضرعون .

وفى غرب الدامر بوادى أب سلم بيان لأب بشر وابنته بشرية !

هـــذا

وذات يوم حدثنا ناظر مدرسة مدينة « ر » أنه يعطى دروسا فى الدين المقارن (هذه العبارة لا تعجبنى . ولكن المعاصرين اصطلحوا ترجمة التعبير الإنجليزى Comparative بقولهم المقارن) وطلب منا أن نخضرها . أحسبه أرادنا لنحضرها أملا أن يكون فى ذلك هداية لنا على تقدير أننا مسيحيان إفريقيان أنقذهما المبشرون بنور الرب من ظلام وثنية الغابة آمين . وتصديت فذكرت له أننى أود أن أحدث طلبته عن الإسلام . فأظهر سرورا عظيما . وحضَّرت الدرس ليلا وعرضت ما حضرته على صاحبى فنصح وراجع ورضى . وكان الدرس تعريفا بالأسلام وتوضيحا لبعض مايتيسر فهمه للصغار من مزاياه وفضيلة تعاليمه . وكان الناظر يسمع شديد الانتباه . أما التلاميذ فقد تتبعوا الدرس أيما تتبُّع وسألوا

أسئلة تدل على حسن انتباه . وسأل الناظر سؤالا مهذبا لم يخل من خفى تعصب ـ تعصب من يثق بما يقول المستشرقون .

ثم بعد الدرس وانصرافنا لنستريح ا. ستراحةقهوة الساعة الحادية عشرة فى حجرة المدرسين أقبل علينا الناظر يشكر لنا ويحمد إلى زملائه درسنا .

وسايرنا ذات مساء بعد دعوة شاى دعانا ها ليودعنا بها . وقال وهو يسايرنا ببحة رياسة وكهولتها « إذن فأنتما مسلمـــان . ينبغى أن تكونا مسلمين عريضى فكر جدا » . وتنازعنا عبارات المجاملة. وكان مما دعاه أن يستنتج ما استنتجه فيما زعم حضورنا اجتماع صلاتهم صباحا . إذ كان يظن هذا ممنوعا عند المسلمين ولم يكن قرأ السيرة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل بيت المِدْراس على اليهود . ولم نذكر له هذا إذ كرهنا أن نفيض معه فى هذا الباب . ثم بعد سكوت ونحن نتسايَرُ كرر العبارة : « ينبغى أن تكونا مســـلمين عريضى فكـــر جـــدا Very broad minded Muslims حسرته أننا مسلمان عريضا فكر لايكاد يخفيها . إذ كان عنده أن المسلمــــــين فَنَطِيقِيُّون ـ أى متعصبـــــون غـــلاة بأيديهم السيوف والحراب يصيحون بوحشية:« الله أكبر » ليقتلوا حمل الله المسيحيين الذين بأيديهم المدافع الرشاشة ، كما فعلوا حال كونهم الدراويش بالجنرال القديس غـــوردون الذى أدرك ثأره اللورد كتشنر اوف خرطوم بصيرورة الخاء كافا .

ثم انتبه من الحسرة ليجاملنا . فقد كان رجلا حسن البنية.أطول من المربوع الذى إلى القِصَرِ ، صبيح الوجه ، وجيهه ، وخـــط فودَيْه الشيب وجاوزهما ، فى عينيه بريق ذكاء حطمه مر التجارب

والسنون وحذرُ الكياسة الإدارية . فقال « أنتم طبعا عواطفكم مع العرب » يشير إلى قضية فلسطين . فلما أجبنا أن نعم قال وهو يجاملنا أنا كتبت كتابا حللت به مشكلة فلسطين وأنصفت العرب. كل الحلول هناك . لو يرجع اليها المسئولون أغنتهم . وقد بعثت بنسخة إلى وزارة الخارجية . ثم ودعنا . واحسبه قال : لقد كان سرورا عظيما لقاء مسلمين عريضى فكر مثلكما .

ثم لا أدرى إن كان بدا له أن عسى أن يكون عرض فكرنا من حسنات الحكم البريطانى . أم عسى أن يكون فيه انتصار لتعاليم المسيحية السمحاء آخر الأمر :

ومن يغترِبْ يَحسِبْ عدُواً صديقه
ومن لا يكرِّم نفسه لا يُكرَّم
ومن يوفِ لا يُذمَم ومن يُهدَ قلبه
إلى مطمئن البرِّ لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإن يرق أسباب السماء بسلم
وكائن ترى من صامتٍ لك معجبٍ
زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده
فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

* * * * *

إبريـل ١٩٤٦

أو مارس

ندّ عنك التأريخ

شكونا إلى الأستاذة مرة أُخرى ؛ هذا فى فبراير ؛ وأحمدنا إليها أيام مدينة « ر » ؛ فرأت أن ترسلنا إلى مدرسة أخرى نقيم بها أياما عسى أن نحمدها • وكان التلاميذ هنا أصغر سنا من ضرب تلاميذ المدارس الوسطى عندنا • بل أعمارهم أقرب إلى أعمار تلاميـذ الأوليّات فى العاصمة •

لقد كان تلاميذ الكتاب إذ كنا بمقرات رجالا • ولم يك من صغار غيرى وغير آخر أو آخرين • هذا أقوله على سـبيل الاحتراز • وأذكر أول مقدمنا مقرات منقولا أبى إليها من كسلا كيف ملأ القوم بيتنا بتمر من « المِشرِق » (١) وقِرَب العجوة من « ودلقّاىْ » ، وقفف ملاء من « ودخطيب » الذى دُمِّس بالرماد ليمنعه من السوس • و « ودلقاى » و « ود خطيب » أجودا أصناف تمر السودان بلا ريب • أصلهما من المدينة فيما ذكر لى • وفى « ودلقاى » قـال الشاعر « ود الكليباوى » يذكر الشاى والسكر :

ما بيعجبنى ودلقـاى
بادور التقلوا له الشاى (٢)

أى « ود لقاى » لايعجبنى ولكن يعجبنى السكر الذى يصنع له الشـاى ثقيلا •

---

(١) المشرق ينطقونهـا بكسر الميم اى التمر الـذى اصله المشرق كانهم يريدون اسم الفاعل « المشرق » من اشرق فيقلبون الضمة كسرة وهذا فى العامية كثير.

(٢) بادور ، الباء والفعل المضارع ادور اى اريد . واحسب الباء اصلها من باء يبوء فهى بقية فعل وليست حرفا . وتنطقها بدور بدون الف .

« ولود الكليباوى » فى الشاى أصناف أشعار . قال :

أنا ان جنّيتَ موقِلنبه
شاياً مو ورق حِلنبَه
بادوره معايا فى الترِ ْبه (١)

أى إن جننت فليس ذلك بما يستغرب . الشاى الذى ليس بورق حلبة ، أريده معى فى التربة أى القبر ، أى كما قال أبومحجن : —

إذا متُّ فادفنى إلىَ جنبِ كَرْمةٍ
يُرَوِّى مُشاشى بَعْدَ مَوتى ِ عروقها

وكان قد نَدَرَ السكرْ عام ١٩٣٠ أحسب أن الحكومة همت برفع سعر السكر فاختفى من الدكاكين واستعمل الموظفون الحلوى . فقال « ود الكيباوى » :

ما تصابح الجار يا حمار
ما تسويها الحيلة نار
ما تصابح الجار القريب
تسمع الكع تطلب الشيب

أى لاتزر جارك مبكرا فى الصباح أيها الحمار تزعم أنك تريد منه نارا وماتريد إلا أن تشاركه فى شاى الصبح . لاتزر جارك القريب أول الصباح لمجرد سماعك صوت رأس السكر يكسر (كَع كَعْ) فتطمع فى أن تشرب كوب الشاى «شِيبْ شِيبْ» قال ذو الرمة:—

تداعين باسم الشّيب فى مُتَثَلّم   جوانبُه من بَصرَةٍ وسِلام

(١) التربة ينطقها الرباطاب بكسر التاء والابيات بلهجتهم .
(٢) بعده : انت ياخوى امرك عجيب. انت ماعندك تراتيب. ماتروح الدكان تجيب.

وقوله «تريد منه نارا» يشير إلى مايكون أو ماكان يكون فى القرى، يستوقد أهل هذه الدار أهل تلك ، هل عندكم نار ؟ فيعطونهم عودا أو جمرات ٠ ومن أكثر ما تستوقد أو كانت تستوقد به النار بعر البقر ، لأنه يحتفظ بالنار زمنا طويلا وله جدار صليب ٠ وكان «م» ــ رحمه الله رحمة واسعة ــ تمتاما فى صباه ٠ أذكره كأنى أراه عيانا ٠ ولم يكن عمرى ، فيما قيل لى إذ أشير إلى هذا ، أكثر من ثلاث أو أربع على أقصى تقدير ٠ كان ــ أراه الآن شبحا ــ يحمل البعرة ويقول ٠٠٠ ويتمتم ويبكى، هذه الصورة العالقة ٠ أحسبهم كانوا يغايظونه وهم يعلمون مايريد ٠ فتزداد تمتمته ويبكى ٠ أرى شفتيه وأنفه وهو ينخج ويذن أنفه من البكاء ٠ وتختلط صورته فى ذهنى بصورة «حلبية» (١) كانت تستجدى كعادة «الحلَب» ٠(٢) أراها الآن وبيدها صحن فيه كسرة «ومـُلاح» أخضر ، أى إدام من ورق اللوبياء أو الخضرة (هذا كان اسمها واسمها الآن الملوخية) وكانت تحرك الصحن ليعم الملاح الكسرة ٠ الكسرة فى الوسط والملاح فى جانب ٠ وهى تريده ليستدير حول الكسرة ٠ لعله ملاح ويكة ٠ لا أرى الآن إلا الصحن وحدقتيها تتفرسان فيه جشعتين ولعلما أرى فما ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ هذا ،

ومما أهداه إلينا أهل مقرات طعام أيام متواليات ٠ وكانوا يطبخون بزيت السمسم وفيه مرارة ، فيجعلون فيه شيئا من السكر ٠ وأما سمنهم البلدى فكان نادرا جدا ويسلأونه مع البصل ويعلفون

---

(١) حلبية : غجرية ونورية بلهجة السودان .

(٢) حلب : غجريون او نوريون كان اشتقاقها من قولهم احلبوا اى اجتمعوا من كل مكان كان معنى الحلب القوم الاخلاط .

المعزى نوى التمر . أذكر شيخة كانت ترضخه . وعلقت هــذه الصورة فى ذهنى . ثم قرأت بيت الحماسى : ــ

كمــا تَطَايَحَ عن مِرْضاخِـهِ العَجَمْ

فبرزت معالم النوى المتطاير واضحة جدا .

كان أهل مقرات حق كرام ، ونما لنا معهم ود ، وكانت تجمعنا بهم صلة رحــم .

وحدأة مقرات كاسرة .

أذكر إذ أُرسِلت لأحضر لحما . وكان اللحم قلما يجزر «بالسيال» حيث كنا نسكن . رعى الله أهل « السيال » وشيخها الكريم السمح وأسرته أهل المبرة واليمن . وحملت ما أرسلت لأحضره من اللحم، لا أرى فيم حملته . وإذا بحدأة .....

(وأهل مقرات لايقولون «الحِدَيَّة»ولكن يقولون «السرتوية»)

..... تلطمنى بجناحيها لطمات . وأصررت على ألا أستسلم . وسقط اللحم مرارا ، وقاتلت عليه الحدأة حتى أوصلته .

واصطاد أناس فرس البحــر (ويسمونه القلوبة بمقرات) بحفر احتفروها له وبعثوا إلينا بقطعة منه . وفى كتاب الشيخ عمر اسحق أو بابكر بدرى إنلحمه تفه لا يأكله إلا الصيادون.ووضعتالقطعة فى « الحلة » . وأوقدت النار . وطال الأمد والقطعة تبزبز بالفقاقيع والماء لا يفور ، بل يتزايد وهو كالبارد أو الفاتر ، الله أعلم أى ذلك كان .وعلمنا بعد دهر ــ وقد ألقينا القطعة فى الدمنة آنذاك (١) ــ

---

(١) الدمنة : حيث تلقى أوساخ الدار .

أن لحم فرس البحر ينشف فى الهواء حتى يفقد الماء • ثم إذا طبخ بعد ذلك كان جيدا •

واهل مقرات يسمون اللوبياء العفن « النَقَسِّيل » ويسمون جابية الساقية « الأقنين » ويسمون قطيع البيت (١) الدّكيق

ويسمون النفاج (٢) « السام » •

ومقرات جزيرة كبيرة • وغاظنى بعد دهر أننى وجدت فى كراسات الجغرافيا : الجزيرة قطعة أرض يحيط بها الماء من جميع الجهات مثل جزيرة توتى بالخرطوم ؛ لماذا لايستشهدون بمقرات ؟ ولم أكن قد سمعت بتوتى ؛ وماكان يخيل إلى أن جزيرة تكون أكبر من مقرات أو أشهر • ولا ريب أن توتى أصغر منها • وعسى أن تكون تفسى قد كرهت أثَرَةَ العاصمة وافتئاتها على الأقاليم حتى فى كراسات الجغرافيا • وشهرة توتى لا تخفى وقد تنسب إليها الخرطوم فيقال خرطوم توتى وقد ذكرها يونس بحرى من مذياع برلين حين ثارت على حكومة بريطانيا •

هـــذا ،

وإنما جر إلى هذا الاستطراد موازنة أعمار التلاميذ فيما بين بلادنا وبلاد الإنجليز • وأعود إلى قصة المدرسة التى بها بدأت •

كان ناظر المدرسة طويلا أقرب إلى المشذَّب أو هو المشذّب • وكان صاحبى يراه من أصحاب الغباوة وكنت أظنه يظلمه • بل

---

(١) القطيع : كان لازما فى البناء السودانى وهو مخزن صغير مظلم يقتطع فى آخر البيت بجدار يوصل بين الجدارين الطويلين ويكون له بويب •

(٢) النفاج : الباب الصغير يصل بين بيتين متجاورين والسام هو الحوش ، وانشدوا .: شتيل المشرق ال علوا له سامه

أعجبني خاصة ساعة أراني القطار الذي يلعب به التلاميذ. فقد كان أيسر جانبا من مؤلف حلول مشكلة فلسطين . وقطار التلاميذ كان رائعا ، إلا أن صاحبي لم تكن تعجبه الفرجة على دور الصناعة هازلا أو جادا . وكان مدرس التاريخ يدرس فترة هنري الخامس من كتاب ضخم كان لكل تلميذ منه نسخة . وكانوا يقرأون الواحد بعد الآخر كما في حصص المطالعة . وبعضهم كان يرسم خرط مواضع القتال. فمن كانوا يرسمون لم يكونوا يشتركون في المطالعة ومن كانوا يطالعون كان أمرهم إلى أن يرسموا ويكتبوا بعد الفراغ من صفحة أو صفحتين تقرآن . وكان المدرس دمثا ، لين العريكة، كثير الصمت ، لو غيره كان مكانه ، يفعل ما يفعله لا ينقص ولا يزيد ، لكان الدرس ثقيل الظل ، بطيء الحركة ، قليل الجدوى . ولكن كان له أخذ" غريب بنفوس التلاميذ ، بعض مصدره لاريب تعودهم أسلوبه ، وعلمهم عطفه ورقته عليهم ، وأكثر مصدره خبرته العميقة الأصيلة ، وملكته الموهوبة في التدريس . قد كان لا يبالي بخطا (هربارت) الخمس أو كان كأنه لايبالي . ولا يشك المرء أن درسه ناجح نافذ إلى الأفئدة .

وكنا نأوي إلى فندق أعدت لنا فيه غرفة بسريرين . وقال لنا رب الفندق : هذه غرفة الأكل ، وهذا هو الحمام ، وهذه هي غرفة الجلوس ؛ إلا أنها لاتلائمكم لأنها غير دافئة . أنتم تحبون الشمس والجو الحار . قليلا ما تظهر الشمس عندنا . هنا حجرة صغيرة تلائمكما ، دافئة لأن ههنا موقد غاز . هكذا . دافئة جدا. ومنضدة للكتابة . ماتحتاجون إليه... وشكرنا له صفاقته إذ لم يخف عنا أنه أراد ليعزلنا عن الجالسين بحجرة الجلوس. ولعله لو كان وجد سبيله

إلى أن يعزلنا عن حجرة الأكل لفعل . وكان عدد المقيمين بالفندق غير حق كبير.إذ كان آنئذ أول الربيع.وكان الفندق ريفيا يقصده هواة الطيور والمشى والراحة فى الريف.كانوا كلهم فوق الكهولة رجالا ونساء . وكانوا يتحدثون فيما ذكر لى صاحبى إذ كان دقيق الملاحظة وانتبه إلى أحاديثهم ولم أفعل ، عن طيور المنطقة ونباتها. وكان بقاؤهم فى غرفة الأكل يتحدثون أكثر من اختلافهم إلى غرفة الجلوس . وكان بقاؤنا فى غرَ َنفة جلوسنا أكثر من بقائنا فى غرفة الأكل أو فى غيرها . وكان ربيعا باردا كأبرد مايكون شهر أبريل. وكنا المساء نخرج قليلا . فرأينا « بَبّاً » (والبب اختصار «ببلك هاوس » Public House « وحان » لا تصلح ترجمة له) . قال صاحبى : هذا من ضرب سيتجهمنا لفراهة منظره ومن تواضع لله رفعه . وأصررت على أن نرى داخله فدخلنا . فإذا جو بارد . وهو خال أو كالخالى . فجزعنا من سوء خُلُوَّ الترحيب. ومضينا إلى آخر كنا نرى ظلال الأشخاص وراء زجاجه . و «البَبّات» أبدا ذات زجاج سميك يضرب إلى البرتقالية يحجب ما وراءه . وعلمنا من مرآنا الاشباح أنه حىٌ مزدحم . ودخلنا واحسسنا دفء الجماعة . وتحدث إلينا أحدها .. تاجر متجول، سرعان ما طابت العلاقة بينه وبيننا وكان هو وصاحبى يتبادلان إعجابا شديدا : كلاهما أعجبه من الآخر دقة ملاحظته وعمق معرفته الناس . ولا أدرى كيف آخر الأمر صير بنا إلى قراءة الكفوف . الخط الطويل للحياة ، وكل من تقرأ كفه عمره طويل وتعتريه أمراض يتغلب عليها ، والتى فى يدها خاتم زواج يقال لها عن المال والسعادة ؛ نعم بكل تأكيد،هنا خط النصر النهائى والتغلب

على صعاب العواطف ونيل المراد • وتكون المتحدث إليها أحسن نصفيها الذى قد ذهب وقد طال تعنيسها • وتعطو شابة حقا تبتسم وتعلم أن قراءة الكف عسى ألا تخلو من مؤانسة غزلة •

« وهل هن والفتيان الا شقائق »

وأشرقت الشمس واستشرى منظر الخضرة استشراء كل منه البصر• ثم غام الجو فى اليوم التالى وكان عطلة آخر الأسبوع • وقبعنا طوال السبت والأحد إلى المساء فى غريفة جلوسنا نستدفىء وأنا أنشد صاحبى : —

أقول وطال فى فعليل يومى وأسلنى الملال إلى الضنان

وقد حجب النهار الضوء عنى وحز البرد أطراف البنان

وهى كلمة • ويوم الإثنين فرغنا من عملنا قبل الغداء بمدة ومضينا إلى غريفتنا • وعدنا إليها بعد الغداء والمطر يهمى طلا رتيبا •وماهو إلا أن جاء رب الفندق ينظر إلينا نظرات تنذر بهجوم • « لماذا لا تستعملون غرفة الجلوس؟» ونحن نعلم لماذا•لأنا — قلنا — نحب هذه الحجرة وتعودنا عليها وهى دافئة • قال كأنه يوشك أن يكون مغضبا : « ولكن دفئها يكلف فلوس (قف بالسكون على لهجة ربيعة لتجيىء بجرس شبيه بجرس كلمة Money كما وقف عليها صاحب الفندق) • ولما فهمنا جزعه من استهلاكنا الغاز والدراهم حتى هان عليه أن نكون بالصالون ، صرنا إلى الرضا بما رفعنا إليه من درجاته • وأطفأ الغاز • وجلسنا للقهوة بالصالون• وقال إنه سيوقد الفحم بعد قليل •

وفى العصر لما أوقد الفحم وجلسنا للشاى ؛ قال لاشىء ألطف من

نار الفحم . ستدفأ الغرفة عما قليل . إبنة زوجتى احتفال عيدميلادها غدا ، يمكنكما أن تحضرا فاحضرا . وحاولنا اعتذارا فقال : ندعوكما ، سيكون رقص ، طبعا تعرفونه جيدا . وأنى له أن يعلم أن أولاد العرب بالسودان لا يرقصون ، وأنه يوشك من رقص أن يظن يعمل عمل أهل القريات . على أن أصنافا من الرَّهْز قد جعلت تدب بين طبقات فى البنادر منذ ظهور « التم تم » والعياذ بالله من الردة بعد إيمان .. وأحضرنا زجاجة هدية له تنوب عن حضورنا احتفال ابنة زوجته . وطابت لنا نفسه فسألنا كيف لم نمتعض من الغريفة الصغيرة كما امتعض من قبل أحد الهند غربيين West Indians واتهم بأن فيها تمييزا عنصريا . وتعجبنا من سؤاله ومن أن يدور مثل هذا الاتهام بخلد أحد . وهل كمثل دفئها شىء ؟

ومن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاج فإنه
يطيعُ العوالى رُكِّبَتْ كلَّ لهذم
ومن لم يصانع فى أمورٍ كثيرة
يُضَرَّس بأنيابٍ ويوطأْ بمنسم

* * * * *

ذكرى ١٩٤٦ – فى – ١٩٦٤

ذهبا إلى مسز جونز بكردف من مدن ولز الجنوبية . وذات يوم إذ يسيران فى الشارع الكبير أمام المحطة الكبيرة رأيا شتى وجوه ملونة ألوانا يعهدانها . واستمعا فإذا ألسُن" عربية وإذا القوم

صوماليون . فتحدثا إليهم وكانا يعلمان أن فى كردف سودانيا ووصفوا لهما منزله. فسارا وراء حيث المحطة ووراء رصيف الخط الحديدى ، فى مدينة كردف أخرى ليس لمنازلها بهجة كردف الأولى . فى الأولى حيث مسز جونز منازل ذات ستائر وحدائق صغيرة أمامها ، يحيط بكل حديقة صريف أخضر مقصوص ، وراء جدار أقصر منه ، وهو ثخين ، أى الصريف الأخضر ، ريان . ودونه ميدان صغير مقصوص الحشيش . فى أركانه أزهار وجبليات صغار. وفى الجانب الخلفى من المنزل حديقة أخرى كبيرة ذات ميدان حشيش أكبر ، تراها إن كنت فى المنزل ، أو مر بك القطار فيما بين المنازل .

وحيث المسز جونز ، المنازل نظيفة المظهر ، كأن المطر الذى يهطل كل يوم لا يفعل ذلك إلا ليغسلها . والطوب الاحمر غالب وغيره من الألوان واضحة عسى أن يكون فى بعضها عَرَق العِتق .

أما فى كردف هذه التى وراء الرصيف كأن المنازل كلها من الأسمنت . ولاخضرة فيها ؛ كل شىء مرصوف بالأسمنت . وفى بعض الطرقات رسم بالطباشير . هنا سود . إفريقيون أو هنود غربيون ، يلعبون النفَنزَجْ . قال العجّاج يصف الظليم أى ذكر النعام :

كالحبشىّ التفّ أو تسبَّجا
في شَمْلةٍ وذات زِفٍّ عوهجا

حتى قال :

فَهُنّ يَعْكُفْنَ به إذا حجا
عَكْفَ النبيطِ يلعبون الفَنْزَجا

وذات الزف العوهج هى النعامة. والزف مالان من الريش. والعوهج البيضاء . والكلام مربوط بآخر قبله فارجع إليه أن شئت فى مجموعة أراجيز العرب للبكرى .



وفَنْزَجٌ نبيط كردف مربعات يرمون عليها الحجارة فيصيبون ويخطئون ، ويكون ذلك قماراً بينهم فى النهار المبصر فى بلد يمنع القمار فى الحانات وكأنه لايبالى مايصنع هؤلاء أو ما لا يصنعون.

ودلّهما منظر الإفريقيين والهند غريبين على أنهما فى حىّ السودانى الذى خبّرا عنه بعد أن كاد يخالطهما أنهما قد أخطأا الوصف الذى وصف لهما . وداخلهما الجدّ الذى يكون عند مقاربة الاهتداء . فأسرعا خطاهما . هما كغيرهما فى هذا المكان المختلط المختلف ألوان الناس وسحناتهم ، إلا هذه المعاطف الجيدة عليهما والملابس المحتشمة المحترمة ومشية وسمت يدل على غير بحاريّيْن ، كقول عمر أبى ربيعة : —

رأتْ رَجُلاً أَمَّا إذا الشّمْس عارضت
فيَضْحَى وأمــا بالعشىّ فَيَخْصَرُ
قليــلاً عــلى ظَهْــرِ المَطِيّة ظِلّه
ســوى ما نَفَى عنــه الرّداءُ المحبَّرُ

فدلّ على سَرِىّ قرشى بقوله الرّداء المُحَبَّر ، إذ قد جعلها تفطن لردائه وهو أشعث أغبَرَ ضئيل الظلّ على ظهر الناقة ؛ كما أنه هو نفسه قوىّ الشعور بوجود هذا الرداء المُحَبَّر .

وإذا ببناءٍ ذى نقش ما على أعلاه أبيض ، وشَبَحٌ حَوْلَه كث

اللحية ، ضخم العمامة كأن عليه مشاجب من ثياب ، عباءات فوقهن عباءات . السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الملك العلام . أهذا جامع وإمام ؟ نعم ورب الكعبة التى قيل إن شارل مارتيل هدمها بحديد فرسانه فيما بين تور وبواتييه فى وادى اللوار .
ولاح آخر ذو طربوش ، حليق ناعم كالسحلية (١) ولعله أضرى من الأصلة التى تصطاد الظباء ، وأدرب بمعاملة أصناف الخشونة البشرية من أبطال الأفلام الأمريكيــة ، مثل كونراد فيــدت فى كسبلانكا .

قالوا إن الأصلة تعمد إلى شجرة كالطلحة لها برم أصفر كاس . البرم جمع برمة بفتحتين وهى زهرة الطلح . والطلح من أشــجار العضاه كالسنط والسدر والسلم والسمر وهلم جرا

فتصعد الأصلة الشجرة حتى تصل أعلاها ثم تهز بها هزا فيتساقط البرم الأصفر على الأرض . فيجىء الظبى حذرا فلا يرى شيئا . والبرم يعجبه . فإذا اطمأن انحنى يأكل . والظبى شره جدا وشرس جدا فيما بلغنى . أحسبه شرسا من أجل أنه مليح . وكل مليــح « ملاح » يأكله الهوى أو تأكله البطون . والملاح بضم الميم هو إدام الطعام باللهجة السودانية . وقال الآخر :

فلو كنــت عذرى العلاقــة لم تكــن
بطيناً وأنساك الهوى كثرة الأكل

هــــذا
وبمجرد انهماك الظبى ف أكل البرم تنحدر الأصلة فى لاصوت

---

(١) السحلية ضرب من العظاء وهى من أصناف الضباب حسنة اللون .

وفى صبر بطىء يَرْمُق غرضا يريد بلوغه لايحيد عنه . فإذا بلغت أصل جذع الشجرة أخذت تزحف فى لاصوت وهذا أعسر عليها، وفى بطء مرهق وصبر قاس لاترى غير الظبى الغافل . حتى إذا صارت إليه المسكين وثبت وثبة نَهِمٍ مُغْرَمٍ حاقد لئيم غشوم عارم فعضّت . ووضعت قرنيها فى أنفه . والتفّت حوله فى سرعة العفريت عمياء بلذة القرم الهوجاء

وبالماء قيس أبو عـامرٍ يراقبها ساعةً أن تصوما

هذا البيت يقوله ربيعة بن مقروم الضبى يصف حال الصائد المتربص ، يراقب الحمر الواردة أن تقف ساعةً ليرميها .

وههنا يوجد أيضا صائد مثل قيس أبى عامر ، غير بعيد ، يرقب الأصلة أن تنهمك فى الصيد . وهى إذا انهمكت عملت أشياء كثيرة معا : تعض وتضغط على الأنف بالقرنين وتضغط على الأضلاع ، وتمط الظبية مطا لكى تقدر على ازدرادها فى يُسْر من بَعْد . وتكون كأنها مجنونة أو مغمى عليها حينئذ لاتحس حولها شيئا . والظبية فى أشد الألم حتى تموت .

فإذا انهمكت الأصلة فى الصيد جاء قيس بحربته وحباله فقضى عليها وسلخها فباع جلدها وأكل الظبى وادخر لحمه وباع جلده وفى الشرق الأقصى يأكلون لحم الأصلة أيضا . ومن الناس من يأكل الثعبان .

ومن الثعابين مايكون طويلا ضخما قاهرا كأنه أصلة.ونحو هذا كثير فى أرض النيل ، ولايتعدى على أحدٍ ولا يهاب أحدا . يقال أخذت فتاة فأسها وقصت أثره تريد قتله وله كشيش ، وهى تراقبه

وتسعى وراءه . حتى إذا بلغ موضعا منه يستدير إلى حيث كـان يختبىء التفت اليها برأس كرأس العتود ورمقها بنـظرة فكمتت وبيدها فأسها . ثم صاحت إلى عمها وكان غير بعيد . هذا الثعبان كريه تعال يا عمى فاقتله ..... ولم يزد العم على أن قال دعيه يابنية هذا « هام » لايقتل ولايقدر أحد على قتله . فانصرفت . والهام هو الثعبان الذى أصله من الجن وفى قصة أبى زيد :

عضتانى هـام أب همايـم

ضربتـه بيـدى أم ختايـم

خليت سمه فوق المـا عايـم

أى عضنى ثعبان شيطانى فضربته بيدى التى فيها الخواتم فقتلتـه فسمه عائم على الماء . لا أدرى قال هذا مرعى أو يحيى يخاطـب أبا زيـد سلامـة .

ولما ذهبنا إلى أرضنا بالنيل الأزرق بالسيارة ، منذ أسابيـع نزيرها أديبا تونسيا كبيرا ، رأينا ونحن على وشك العودة ، بل قد تحركت السيارة،غَبَرَةَ ثعبان أسود طويل زحف متموجا من فوق إلى تحت نحو النهر . وهممت أو أوطئه السيارة ولا أدرى بعد لم لم أفعل . وقص علىّ أخ كريم أنهم عسكروا بجبل موية فاختاروا رابية للمعسكر وكان ذلك منهم خطئا ، لأن الرابية فى مثل ذلك المكـان إنما تكون قد نشأت من تراكم التراب على خرائب أبنية قديمة من الدهر السالف . ومثل تلك تأوى إليها الثعابين ويكون

بطن الوادى أفضل للمبيت والمقيل منها . ولما جلسوا المغرب ، قال صديقى ، على كراسى الرحلة ، إذا برءوس الثعابين من شتى الأجحار . وما هو إلا أن قضوا من الليل جزءا صالحا ممسكين ببنادقهم كلما ارتفع رأس ثعبان ألحقوه طلقة . وخافوا أن يتهمهم عمال المعسكر بالجبن . فلم يفارقوا رابيتهم ليلتهم تلك . وضربوا ثعبانا فانثال مع موته بيضه : كانت أنثى حاملة . وزعم لى أحد مدرسى العلوم الطبيعية — وما أشبه أن تكون مقالته من قبيل الخرافات — أن بين رءوس الثعابين والبنادق ذات المواسير الطويلة جاذبية شديدة بحيث لايخطىء مصوب البندقية إلى رأس الثعبان أبدا . وهذا غاية الجبن منه البائس .

وقوز الدامر الكبير الذى غربيه الجامع القديم كأنه قام على أنقاض مدينة هليوبوليس المرويين القديمة . إذ لا يعقل أن يكون قوز رمل طبيعى التكوين . وفيه من الثعابين ما يسكن فى هذا الضرب من أقواز الخرائب ، ضرب أسود قصير ثخين تستخرجه الدجاجة وأخوتها فينقدنه بمناقيرهن حتى يموت . والدجاج من الطير المسلم . قال جرير :

لمـا تَغَرَّبت بالدَّيْرَيْنِ هَيَّجنى
صَوْتُ الدَّجاج وقَرْعٌ بالنواقيس

وقرع النوقيس أشبه بالديرين إلا أن جريرا لإسلامه كان أحب إليه صوت الدجاج . وقال أبو نواس :

ذكر الصبوحَ بسُحْرةٍ فارتاحا
وأملّه ديك الصباح صياحا

وإنما أملته لأنه ذكره الصلاة وهو يهم بعصيان . ولو كان جاهليا

لهشٍّ له كالذى فعل لبيد حيث قال :

بادرت حاجتها الدجاجَ بسُحْرَةٍ
لأعلَّ منها حين هبَّ نيامها

هلو ترنك صوت حلو •• قرية كذا ••• ماذا ؟ •• اطلبى المدينة الفلانية تخبرك بها ، من فضلك يا آنسة بسرعة • حاضر، ضرورى • شكرا ••• العفو •• رقم تلفونك •• كذا كذا ••• ضع السماعة •

ومر ربع ساعة وقال : لماذا لم تجىء النمرة ، أنظر مرة أخرى، أطلبها • وقام صديقنا ليطلبها ورفع السماعة•بز بز خشخشة••

الحمد لله التلفون خسران ••• اسمع •••

ماذا خسره ؟ ••• لا أدرى ••• ننتظر •

ورفع صديقنا السماعة بعد مدة • لقد صلح التلفون • يا آنسة طلبنا منك نمرة كذا ••• حاضر •••

•• بز بز بز ••• خسران •• ثم خمس دقائق ورفع السماعة ، صلح التلفون ، يا آنسة طلبنا منك رقم كذا ••• ماذا ؟ قرية قرب مدينة كذا ••• حدثتك من قبل • لم تحدثنى • نحن هنا ست بنات • يااللضيعة ، لسان حالهما • حاضر بسرعة • شكرا • آسف• مادام الأسف • ثم صلاة المغرب أو لعلها العصر

إن الصلاة أربع وأربعْ
ثم ثلاث بعدهن أربع
ثم صلاة الصبح لا تُضَيِّع

وجميع الصلوات بكردف ضائعة إلا من رحم ربك وإلا صلاة العيدين والجمعة وبعض الخمس بين هؤلاء المسلمين الملونين القاطنين وراء الرصيف • ودلهما الأملس الوجه على شارع يؤدى إلى الشارع الذى كان فى مكان غير بعيد من بيت السودانى واسألوا الدكان الذى قرب الـ ••• هل قال ذلك ؟

ونقرا البابَ أو ضغطا زره وجاء رجل كان قوى البنية قد انهار وهو يتماسك ببقية من دارس فتوته ، وكان ط•ص• محسيا من أهل أقاصى ما بين عبرى وكرمة • ولاقاهما بترحاب عريض عميق صادق • طال عهده بسودانى •

وكان وحده • ولابد من العروض • ثم خرج وعاد • ولابد من الغداء• دمعة ودجاج وخضار• « فين رايحين ؟ تتغدوا هنا ••• جيسس كرايس » تعلم هذا التعجب من البحارة الأفرنج • ونسب لهما نفسه وقال إنه يفهم أولاده بنسبهم • جيسس كرايس ••• ثم يسعل • إنه مريض حقا • أنتم يا أولاد مسلمين محس سودانيين•• انتو فاهمين جيسس كرايس • وجاء الأولاد • ولدان وبنت• كلهم كأبيهم صباحة إذ لاشك أن أباهم كان جميلا فى روق شبابه وأراهما صورته ليؤكد ذلك••ما أشد شعوره بذهاب قوته وشبابه•

يا لهف نفسى على الشباب ولم
أفقد به إذ فقدته أممَا
إذ أسحب الرّيط والمروط إلى
أدنى تجارى وأنفض اللمّما

وتذكر أيام كان ابن العشرين وكيف خرج من دياره مغامرا وهو فتى دون ذلك • وقال : لى تسع عشرة سنة فى هذا البلد• لقد حدث

أيام كنت شابا . وأخذ يقص ولايكاد يتذكر ولا تستقيم له اللغة لا عربيتها ولا إنجليزيتها . ونهض بهيكل جسمه العظيم ليصنع لهما الطعام . وسألا الأولاد فقالوا نحن « ولش » أى ولزيون . ولأهل « ولز » وطنية يتعصبون لها إزاء الوطنية الانجليزية وهم فى هذا كأهل اسكتلندا أو أشد .

وقال ط.ص. جيسس كرايس . انتم مش ولش . قولوا نحن برابرة محس سـودان .

وحدثهما أنه يفهمهم ذلك كل يوم . وسألا الأولاد ، فكانوا يعرفون شيئا من العربية قرأوه على إمام الجامع وأقرأهم من القرآن . هم ولش ومسلمون . يعلمون انهم مسلمون . لا إله إلا الله محمد رسول الله . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم .. لا بهذه الفصاحة طبعا ... ولكن كلمات الإسلام والعقيدة هذا عندهم بلا ريب ، مع أن الاسماء عند الأب عربيـة ، وعند الأم ـ واسم الام هو الغالب ـ إنجليزية . والبنت أعرف بالعربية . والمجموعة المسلمة بكردف كأنها أحرص على تثبـيت البـنات فى العربية والإسلام ، فى الإسلام والعربية . جيسس كرايس عندنا هنا جامع وشيخ ومأذون والبوليس يكتب فى الدفتر .

ونجز الطعام . دمعة ودجاج ولحم ورغيف وشطة وسلطة على الطريقة البلدية وشاى . كلوا ... وكرم بلدى بكل أبعاده .

ولم يسألاه عن ربة البيت ... ولكن أخبرهما أنها ذهبت إلى والديها بمنشستر . وأصر أن يبقيا إلى العشاء . وحادث زوجته وقالت إن القطار تأخر فى « كرو » ـ (ملتقى خطوط كبير) ـ وكانت

كهلة لم تضعف ضعفه . وكانت به برة وبأولادها سعيدة وأحسب لم يكن يخلو عيشهم من شدة . ودعاهم فى الغد وكانوا فرحين حزينين ... الأولاد والأم والأب من بلاد المحس أو السكوت أو كرمة أو أرض الحجر . مكان ما بين الشلالين الثانى والثالث . إن أهله لم ينسوه . كان وحده هو السودانى فى كردف كما ذكر م.ع. وكان لم يمت بعد . وكان له العرب من صوماليين ويمنيين وغيرهم أهلا . وكان م.ع. يكاتبه ... والآن زاره اثنان من السودان وأكرمهما وباتا فى داره ورأيا ابنته وولديه وأهله . . . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام .

وأحدهما شهد بعد دهر احتفالا فيه روايات وأغانى هواة من الجالية الأفرنجية بالخرطوم . وكان مما تغنوا به الكلمة الشعبية من أغانى عصر فكتوريا :

ياسيدى الفرّاش ماذا أصنع
أريد أن أذهب لبرمنجهام
أخذونى إلى « كرو »
خذنى إلى لندن ، كأسرع ماتقدر
ياسيدى الفراش
يالى من بنت بلهاء

ورنّت فى أذنه كلمة « كرو » . ليت شعرى ــ قال لنفسه ــ كيف الآن أسرة ط.ص. فى مدينة كردف الميناء ؟

أما ط.ص فقد توفى . وقد زاره قبل موته ابن عم له لحًا من أرضه بين الشلال الثانى والثالث . وقد حضر مأتمه وقام به فى جماعة . جيسس كرايس . لقد رأى أولاده حسبه ونسبه قبل أن يموت..

مات سعيدا . وبنته تزوجها عربى مسلم بكردف . وأبناؤه مهرة متعلمون مستوى معيشتهم مضمون .

الا لَيْت شِعرِى هَلْ أبيتنَّ لَيْلَةً
بجَنْبِ الغَضَى أزجى القلاص النواجيا
فليت الغضى لم يقطع الراكب عرضه
وليت الغضى ماشى الرِّكابَ لياليا
لقد كان فى أهل الغضى لو دنا الغضى
مزار ولكن الغضى ليس دانيا
تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى
سفارك هذا تاركى لا أباليا
الم ترنى بعتُ الضلالة بالهدى
وأصبحتُ فى جيش ابن عفّان غازيا
وأصبحت فى أرض الاعادى بعدما
أرانى عن أرض الاعادىّ نائيا

* * * * *

سنة ١٩٦٣

ليلة ماطرة بالقصر فاختل نظام الدعوة التى كانت فى الحديقة فإذا القوم فى البهو والحجرات . وإذا بأحدهم يناديه باسمه ، إنه أحد المهمين جدا فى المجتمع الافريقى الآن ، لعله مدير أو وزير ، يذكره جيدا منذ عهد أيام الدراسة فى قلب لندن . وسأله «ع» فإذا هو الآن وزير المالية لبلد كذا ممن استقللن حديثا من أمم

القارة الإفريقية الناهضة • وكان منزل «ن» أعد لإقامة طلبـــة المستعمرات والمحميات وماكان للسلطان البريطانى عليه ظل•وكانت غرفه نظيفة•ظريفة دافئة بالتدفئة الداخلية • وكان فيه الماء الساخن ليل نهار • وحجرتا الجلوس أبدا فيهما نار الفحم لتشعر المقيمين بالطابع الأنجليزى•ولم يكن الطعام ليوصف بجودة أو قبح إذ كان التموين والنقص فى مواد التأنق فى الطهى ضاربا آنئذ بأطناب • وكانت الخوادم فى حجرة المائدة شواب كواعب نواضج الأنوثة رائقات•وساء المشرف على المنزل كثرة أحاديث الطلبةمعهن وضرب من التآنس جعل يدب • فأصبحوا وقد طردهن جميعا واستبدلهن بعجائز شهربات •

بعض الطلبة من الهند غربيين يلفظون :

اســمع يارجــل

وكلمة رجل كثيرة الورود على ألسن الهند غربيين•آنا يجعلونها فى أول الجملة • وآنا فى نصفها • وأكثر شىء فى آخرها وكأن النون غنـَّة بعد الألف الطويلة الرقيقة التى كأنها فيها إمالة بـين بـين
Listen ma...n مستر هـ • عنصرى يارجل

اسمع يارجل ، مستر هـ • حاسد •

كلمة حاسد هنا ترجمة Jealous أى غيور بمعنى يدل على أن تكون الغيرة حسدا لا حـَمـِيـَّة •

هند غربى لإفريقى : (والهند غربيون يعدون انفسهم أرقى مـن الإفريقيين من أجل أنهم أقرب إلى البيض ، قرب طول الجـوار ، جوار ما)

الهند غربى : رأى شباب بياضهن الملتهب يارجل فغار من حديثهن معكـم يا أولاد

الإفريقى : اسمع يارجل ، مستر هـ • وغده مخه وسخ يارجل • (الإفريقى لايعرف استعمال كلمة « رجل » فى آخر الجملة وأولها ووسطها كما يعرفها الهند غربى ، ويقلده ، وينطقهابخشونة المخارج الإفريقية،لأناللغة الأنجليزية بالنسبة إليه ليست لغة الأم كما هى بالنسبة إلى الهند غربى •)

ـ اسمع يارجل ، مستر هـ • عنده جواسيس يقولون له هؤلاء الأفريقيون يتحدثون مع البنات البيض وهذا لايعجبه •

ـ محزن ذهاب مس م •

علق أحدهم وابتسم الهند غربى وأبدى أسنانا بيضا كثيرة •

ـ محزن ملعون يارجل

ـ والنونات التى فى خدها • حاسد مستر هـ •

ـ عنده شعور بالكبت الجنسى العنصرى

ـ استعمارى يارجل

بعض الأسيويين يوافقون على تهمة العنصرية من غير حماسة إذ عندهم أنهم آريون كالإنجليز والألمان • وعلى هذا يكونون بيضا وإن غشى ألوان جلودهم سواد ، ويكون بياضهم مستترا وجوبا كالضمير فى أكتبُ وقمْ وخلا وعدا • قد كانوا يظنون أن سبب غيظهم من طرد الشواب حرمانهم من فرصة أن يتحدثن إلى مدنيتهم على أنهم كانوا يحسون فى أعماق سريرتهم أن دافع طردهن كان غيرة عنصرية من المستر هـ•لم يكن المقصود بها الإفريقيين وحدهم•

لقد كان يغيظهم جدا أن الأوربيين يحترمونهم فى الكتب لا فى المعاملة اليومية ، يحترمون أخبار أجدادهم ويحتقرونهم هم .لعلهم لو قد بعث أجدادهم لاحتقروهم أيضا .

كانوا يتحدثون بحذلقة ويقطعون أحاديثهم بالضحك من دون أن يكون ثم أمر يضحك ، يرون أن الضحك مثل النقطة والفصلة والنقطتين فى الجمل المكتوبة ... شىء يستقيم به تركيب المحادثة

ـ هذا طرف الإسفين الدقيق

ـ أسلوب فرق تسد .

ـ اللامقاومة فيها أشد مقاومة

ـ والنفاق يجعلهم يخطبون ولا يفعلون

ـ ولكن هناك عامل اقتصادى هام

ـ قه قه قه قه ـ والترباتر كان وحده العقل المفكر فى تلك المجموعة

ـ ماتفتكر يارجل ! مستر هـ . عنصرى

ـ عنصرى . هذا حيلة قذرة

وكان «مب» طويلا مهيباجليلا مرفوع الرأس فىملابسه المسلمة. وكان امرأ يكن فى أعماقه ابتساما عريضا تفشيه نظراته الجزلةوقال

ـ الفتيات اللاتى كن يخدمننا كن شابات وكان شعرهن قويا ثم قال بعد إنصاته أنصتها من كان يحادثهم

ـ والفتيات اللاتى يخدمننا الآن عجائز وشعرهن ضعيف ونجده فى الطعام .

وبعد أيام أعيد النظر فى الخوادم فجعل بعضهن شبابا وبعضهن غير شباب .

ألاليت الشباب يَعُود يوماً فأخبرَهُ بما فعل المشيب

كان والدنا الفقيه عبد الله كثيرا ما يترنم بهذا البيت .

وكانت القيمة عليهن تتصابى وقد مضت عليها أحقاب وأكل الدهر عليها وشرب . وكان لاحدى الفتيات نقرتان فرحتان فى خديها وعيناها ناعستان ضاحكتان . ولها كفل محكم ناضج .

وكان «مب» يساير «ع» فقال له : كل فتـاة فى لندن بيدهـا حقيبة يد . ولو وُضِعَتْ حقائب أيدى الفتيات كلها فى وسط حديقة « هايد بارك » لصارت تلا عظيما . وأنا لو صعدت على هذا التل لرأيت ميناء سوثهامبتن التى منها أركب السفينة إلى بلدى . بقى كذا يوما للعودة . وبعد شهر يبقى كذا يوما . سأركب الطيارة لأنها سريعة ، وما من الله سيجىء . وبمجرد وصـولى سأتزوج أخرى على التى عندى .

وزار جامعا كانت تتحدث عنه الفتاتان راء وياء ، فقد كـان أزارهما إياه بعض زملائهما المسلمين . وكانت راء قصيرة تلبس بنطلونا . وياء طويلة تلبس فستانا . وقالت راء : «كان موقفا محرجا» وقالت ياء : « كان محرجا جدا . » ثم شرحتا هذا المحرج بأن راء ضحكت لما رأت الجماعة يسجدون . لم أتمالك نفسى من الضحك . متأسفة . ولكن لا يقدر ان يتمالك الانسان نفسـه من الضحك (تضحك منى أن رأتنى أحترش) (١) . وأفلام هوليوود مولعـه بعرض منظر السجود فى الطنز (٢) بالمسلمين ، تراه مضـحكا ، تريك المصلين من وراء . ولما عَرِض منظر سجدة القائد الروسى فى فلم الحرب والسلام أرته من أمام .

(١) الاحتراش اصطياد الضباب والصائد يبرك امام الجحر ويحرك يديه .

(٢) الطنز : السخرية .

فتأمّل ! ! وكان الإمام ذا لحية كثة وشارب حليق ومعه مساعد له ذو لحية كثة وشارب حليق • وكان الإمام دحداحا قصيرا تلتمع عيناه بذكاء وفكاهة أكسبتها إياه التجربة وطول الجداول ودقة الذهن لا انه فكه حقا ، فقد كان فنطيقيا لاريب فيه•وكان مساعده طويلا ضخما ذا لانصيب من الفكاهة لغباء عينيه ، وكان فنطيقيا أيضا • وتحدث الإمام عن التفسير : « من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل •• إلى آخر الآية » • وعنده أن الوجه هنا : من ينسبه الله إلى الضلال،فرارا من أن يكون الله هو مسبب الضلال،والشاهد «ومازال شربى الراح حتى أضلنى صديقى» أى نسبنى إلى الضلال، لا جعلنى ضالا ؛ بهذا ينبغى التفسير • وكل هذا كأنه اعتذار إلى المستشرقين عما ينتقدون به كتاب الله ، يقولون : كيف يضل الله الخلق ، وكيف يجوز لله أن يمكر ، أو أن يمد لأحد فى الضلالة وهلم جرا • وكتاب الله فى غنى عن أن يعتذر له مسلم لدى متعصبى النصارى والمستشرقين أمثال مرجليوث مثلا وغيرهم من أهل الملل كأننا ما كان يقولون • وغير خاف عليك أن الحديث عن أمثال «مكر الله » و « من يضلل فماله من هاد » ليس لعمر أبيك مرادا به غير الطعن فى الإسلام من طريق الطعن فى الرسول بمراءٍ كمراء من عاصروه بالمدينة أمثال حيى بن أخطب

وفى تعب من يحسدالشمس ضَوءها ويجهد أن يأتى لها بضريب

وآية عَدَمِ صدقه ، وشاهد تعصبه،أنه يفرض أن مسألة حرية الإرادةقد فُرِغ منها،فما يُشتَمُّ منه الجبر يدل على ضعف وجمود

واعتذار الإمام الذى ذكرنا « ومازال شربى الراح حتى أضلنى»
إنما هو ضرب" من استشعار النقص المقارف الكفر أو الواقع فيه.
والإسلام له فى أمر الذات وصفاتها مذهب معروف

ومنه أن ينظر بالأبصار   لكن بلا كيف ولا انحصار

ومن كانت له الذات العلية هدى وأضل وإن رغم أنف مستشرق
وغير مستشرق ، اللهم اجعلنا ممن هديت غير المغضوب عليهم
ولا الضالين .

وإنما كان الإمام ومساعده وصاحب ثالث لهمالم يلقياه يومذاك
جميعا من فرقة معجبة بالمسيحية الغربية فى عدة أمور . منها التبشير
للافريقيين . المبشرون المسيحيون يفعلونه غَزْواً وفتحا وعقيدة .
وهؤلاء ، أعنى الإمام وفرقته ، يفعلونه ليقنعوا أوربا أنهم متمدنون
ينبعون اسلوبا متمدنا كالكنيسة ، لا الجهاد ، الله أكبر ، كما هو
شائع عن عقلية المسلمين .

وأراد أن يبشر لهما لأنهما إفريقيان . وسألهما عن المهدى الذى
فى السودان هل حقق رسالته . واستفسر بالسؤال.وقال «ع» نعم
فقد هزم الاجانب وقتل هكس وغوردون . وقال الإمام الجدلى :
كلا ، ليس هذا تحقيق رسالة . هذا حرب وعنف . ولكن هل
عاش ليحقق رسالته أم مات؟مات بعدفتح الخرطوم.لم يحقق رسالة.
مات ومولانا المسيح كان على قيد الحياة . ومولانا المسيح قال من
يقوم بدعوى المهدية فى حياتى ويكون كاذبا يموت قبل أن يحقق
رسالته وأنا حى. ومهديكم مات ، ومولانا المسيح حى ، فهذا يدل
على أن مهديته كانت باطلة .

ومولاه المسيح الذى كان عنه يتحدث لا يسبقن إليك أنه سيدنا عيسى بن مريم ، ولكن أحد الكثيرين الذين ادعوا النبوة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم غير مبالين بقوله تعالى : « رسول الله وخاتم النبيين » وقد ذكر منهم أبو العلاء جماعة فى رسالة الغفران فهذا يضاف إليهم .

امتعض « ع » من الطعن فى مهدى السودان ونافح أولا بذكر فضيلة ما قام به من الجهاد . ثم لما رأى الإمام المسيحيانى ينقص من قدر الجهاد على وجه العموم ، أخذ هو يهاجم فكرة المهدية بما قال ابن خلدون وبغير ما قاله ابن خلدون : تذكر مثلا كيف أحزنته غفلة تاشفين عن أمر محمد بن تومرت حتى أصاب ملكه ما أصابه من عبد المؤمن ولعل مهدية محمد بن تومرت كانت مما طوّح بعرب الأندلس إذ أنها هدت المرابطين ولما يضعفوا بعد ، وكانوا غيارى على الإسلام ، وقد بدأوا يتمرسون بركوب البحر وقتال الأفرنج . وما قضاه الله كان . ولم يكن الموحدون بأشداء فى أمر الأندلس كشدة المرابطين .

وجعل المسيحيانى يدافع عن فكرة المهدية إذ عليها قائم أمر مولاه المسيح كله . وأبى بَعْدُ عنادا وإصرارا ألا يقبل مهدية مهدى السودان ليته مُنِىَ بأنصارى أشوس كالعوض بن عبد العال : —

وكان يجلس فى مجلس الفقيه عبد الله فى طرف ، ملتزما سمت التلميذ من الأدب على سنه المتقدمة . وكان ضئيل الجسم صليبا عيناه تشعان بتحفز ينبىء عن حقيقة معدنه . وفى يده فرّار (1) كان يقاتل

---

(1) الفرار : فاس صغيرة .

به أيام كان الأنصار . ولم يفارقه حتى بعد «كسر القبة وقلب الجبة» (١)
وعلى رأسه عمامة إحدى تكويراتها تحت أذنيه ولها عذبة .

والفكى (٢) عبد الله الوديع الوجه ، القديس النظرات ، المتواضع
الحليم العزيز المنيع ، كان يوده ويستنشده .

وكان كثيراً ما يتفق حضور الشاعر الكردى نشيد العوض
رحمهم الله جميعا وعطر ذكراهم .

وكأنى بالعوض ينقر بفراره الارض ، لا يصل به إلى الارض
حقا ، وإنما كان يوقع به لنفسه .

قـت بالعـلى العـالمـا لل فى الأرض والسما
مهـدى الله طبى القاسـما

وهى كلمة طويلة مطلعها

قلبى مشتاق للإمـام مهدى الله طبى القاسما

وهذا المطلع يكرره الحاضرون بعد كل بيتين ويجىء العوض بآخر
شطرة فيه أو بجزء منها بعد كل بيت كما رأيت .

وللعوض فيها أسلوب رنان كوقفته عند اللام قبل أن يصل إلى
الجيم فى قـوله :

مهـدى الله بيعلمـا من قبـل الجد آدمـا
مهـــدى الله طبى القاسـما

---

(١) هذا مثل معناه قوة الولاء للمهدية حتى بعـد ان كسر الفاتح قبة المهـدى
واجبر الناس على التخلى عن زى جبة المهدية المرقعة .

(٢) الفكى : اختصار الفقيه ، هكذا يقولون فى لهجة السودان .

ثم أيضا يكرر الراء ويدورها من قوله :

مهـــدى الله المنتظـــر من شك فيك قد كفـــر

وصوته بذلك جهير ، لو سمعـه ذو اللحية الكثة المسيحيانـــى لملىء منه فرارا ورعبا •

مدافـع الباشا ضَرَبَنْ رش وزى الموية تحت القش

ولما عاد إلى المنزل حيث كانَا يسكنان قال مب « لا احب ذلــك الرجل » يشير إلى إمام الجامع « إن دينه فيه بدعة وأريد أن أعيد صلاتى » •

وأصاب فقد كان سنيا مالكيا سليم الفطرة لايشك أن من ادعى النبوة بعد محمد كافر • وكان الإمام الجدلى حدثنا عن قرآن صاحبه • وجماعة من الإنجليز قد اعتنقوا هــذا المذهب لِغَيْرِ بُعْدِهِ كثيرا عن الذى كانوا عليه من التثليث

ــ نحن المسلمون الأفريقيون نحب العرب وننسب أنفســنا للعرب من أجل محمد وأنت أيها العربى المسيحى ينبغى أن تخجل من نفسك لانه لافائدة فى العرب بلا إسلام •

وأحسن الكميت إذ قال يمدحه عليه السلام

بك أجتمعت أنسابنا بعد فرقة فنحن بنو الإسلام ندعى وننسب

وعسى أن يكون الكميت قد نظر فى عجزبيته إلى قول نهار بن توسعه

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وكانا متعاصرين

وكان (ط) الصينى كثير الكلام كثير الانفعال ، ساخن تعبـير الوجه دافىء العاطفة ومع ذلك قوى الأعصاب

وكان كثير التعجبات الإنجليزية تعلمها من الجيش : قود لورد !
قود هفنز ! ويغنى الاوبيرا •
يور تايني هانـد إز فروزن
يدك الصغيرة باردة جـامدة
ولم يكن مسيحيا ولكن كان ممن سينضم حينذاك إلى الشيوعيين•
وكان ذا شهامة وتحدث عن الرشوة فى الصين • إن كنت تقبـل هدايا المال فذاك ، والا فالأفيون ، والا فالنساء وإلا •••• لا يعجزون عن شيء ولا يتورعون عن شيء ••• ولا يخلو امرؤ من ضعف تصل الرشوة إليه من طريقه •
وتحدث عن تقليد شبان الصينيين للأوربيين والأمريكيين حتى فى الأسماء نابليون ، ولنجتون ، وشنجتون •
وكان الذى صار وزير المالية يلاعبه البلياردو • وكان هادئا يتأنق فى أسلوب لعبه ويقتدر • وكان «ط» يستعجل ويندفع ثقة بملكة يده وعينه • وكان مما يخطىء فينفعل ويصـيح • وكان الآخـر يبتسم فتبدو له أسنان بيض • وكان يبدو عليه انه موصـوف بالملكة الإدارية وسينجح •
كذلك بدا وهو ينادى «ع»•وكان إشراق ابتسامته وعينيه يتألق فى العاصفة والمطر • وهدوءه وتأنقه وهندامه وغليونه ورقة شفتيه بالغليون ولم تكونا حق رقيقتين • وسأله «ع» عن زميل له كان معه أيام المنزل فذكر أن حاله ساءت ، وكأن صلة ما بينهما قـد انقطعت ••• قد كان « أ » حيبا ولكن كانت فيه رعونة•هل انهمك فى الشرب ؟ (ج) الوزير يكره أن يفيض فى هذا الباب وفى الذى يقول مشعر ببعضه

وانطفأت تألقة وجه «ج» لما خالطت الملكة الإدارية ما خاضا فيه قليلا من حديث السياسة .

ـ هل تأتيكم إعانة ؟

ـ نعم من كل مكان .

ـ الأمريكان ؟

ـ الأمريكان والروس واليوغسلاف والبلغار والهنغار والإنجليز والصين الشعبية أحيانا والمانيا الغربية وأيضا الشرقية وفرنسا وفى بلدنا عدد من اليونان ... أى شىء كانت المذبحة التى سمعنا بها العام الماضى ؟

ـ أرادوا ليؤثروا على اتجاه الأغلبية بنعرة دمجوجية . ولكنا غلبناهم بحسب التكتيك الدمقراطى ، وكانت أصواتهم بالرغم عن جميع احتيالاتهم وتكتلاتهم دون أصوات حزبنا . والآن الأمور جيدا تحت أيدينا .

كان يتكلم بثقة غافلة عن ريب الخطوب ، ثقة من تلقوا درس التخريج فى الدمقراطية من اتوقراطية الاستعمار . إنك لا تجنى من الشوك العنب . وقد تجنى من العنب الشوك والله على كل شىء قدير .

جيدا تحت أيدينا . وبعد اسبوعين أو دون ذلك أو زد عليه قليلا، شبت ثورة دمجوجية طوحت بالدمقراطية . وشاعت الاخبار أن « ج » من ضحاياها . ثم كذبت الاخبار ذلك . ثم عادت فسكتت عنه سكوتا يريب . أكانت تلك العاصفة التى أفسدت حفل حديقة القصر فلجأ الضيوف إلى الابهاء والحجرات إن هى إلا إرهاص ونذير « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » ... « وإلى الله ترجع

الأمور » ••• يعلمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تخفى الصدورُ والله يقضى بالحقّ والذين يدعون من دونه لا يَقضُونَ بشَىْءٍ انّ الله هو السميعُ البصير » « إنا لله وإنا إليه راجعون »

فلا تبعد فكلّ فتى سيأتى عليه الموتُ يبرَح أو يغادى
وكل ذخيرةٍ لابدّ يوماً وإن عمرت تصير إلى نفاد

* * * * *

؟ .... ؟ ١٩٤٦ .... ؟

ابريل أو مايو ؛ لعله مايو

كان ينظر من زجاج النافذة والقطار مسرع • والنظر من نافذة القطار يعجبه ويملك عليه لبه منذ الطفولة السحيقة •

ــ أفندى لر ــ أفندى لر
ــ أفندى بضبانة ــ أفندى بضبانة
ــ أفندى لر ــ أفندى لر
ــ أفندى بأربع ضبانات ــ أفندى بأربع ضبانات
ــ أفندى بضبانتين ــ أفندى بضبانتين
ــ أفندى لر ــ أفندى لر

ددق دق ددق دق ددق دق

ــ أفندى بضبانتين

يعنون أعمدة التلغراف وهم ينظرون إليها من نافذة القمرة (من دون شك تعريب Compartment) • قالت الشيخة

ترثى الموظف وكان بها برا :

يال كارس ال فارس ال ما بِتنجضّع السبارس (١)

تمدحه بالهدوء والشجاعة وعدم التدخين .

قال جده يتحدث عن مَحْمُودَنْ الشنقيطى ، وكان ، قال ، يدخن ، وكان عالما . فسألته ، هل هذا الدخان الذى يدخنه حلال . فيا سيدنا (٢) خلف رجلا فوق الأخرى ثم قال ، والله ياولدى حرام ، تالله حرام

وكان الإمام المهدى يحرم التنباك ، فالشيخ الشنقيطى أقرّ على نفسه بارتكاب الحرمة ليصحح مذهب المهدى كما ترى . وذلك آية علمه وفضله ويغفر له تدخينه ، إن الحسنات يذهبن السيئات. وأنشدته عمته ابنة عمة أبيه

هَوَيْ هَوَيْ نسير   للمهدى فى قدير

السيد إياه السيد
والمهدى الْ فى الأبيض
المهدى رسل مكتوبه
قال لينا صلوا وتوبوا
الحرام اتركوا دروبه
مهدينا ود عبد الله
بسيفه قطع الجلة
والكفرين بالسلة

---

(١) الكارس : الهادىء . الفارس ، الشجاع . بتجضع ، اى ترمى انقلبت الضاد عن دال اصله من جدع يجدع . السبارس اعقاب السجائر .

(٢) الفقيه يخاطب الآخر بقوله سيدنا يخفف تشديد الياء ويميل فتحة السين .

بإمالة الكفرين على مذهب القراءة البصرية ، وزعم سيبويه أن الكافرين بالإمالة أكثر عند فصحاء العرب ، ومنهم من يميل الكافرون .

وأنشد صديق له هدندوى طبيب قضى نحبه شابا رحمه الله رحمة واسعة ، وكان صيتا ، وكان يترنم : —

سلم غردون ياكافر   للقاعد والمسافر
يا الشارب التنباكا   ريى الكريم يبلاكا
هَوَىْ هوىْ نمشي له   للمهدى فى قدير ،

والهدندوة من أطيب خلق الله صوتا وانشادا ولهم ذرو من معرفة الانسجام والمقابلة يسير . وعلى وزن أغنية من أناشيد السماكين الهدندوة نظم الشيخ محمد المجذوب كلمته : —

ياصحيح الباطن   هأنذا قاطن
هأنذا ساكن   فى برور سواكن
أهل القيف والحافا   مدْ لهمْ ألطافا
كن بهم رآفا   يوم الناس خوّافا

اى خوّافه

والكلمة بين العامية والفصيحة الميسرة ، غاية فى الحلاوة .

* * * * *

الضان والبقر الضخام كأنما عليها الملاءات والأشجار الدوحات العظام والشمس مشرقة على الربا والوهاد والشجيرات والحظائر كأنما هى قمر . ولقد نظر أبو تمام فأدق النظر حيث قال :

تريا نهاراً مُشمساً قد شابَهُ   زَهرُ الرُّبا فكأنما هو مُقمِرِ

وشمس إنجلترا إذا سطعت خالط ضوءَها هَبْوٌ من بخار الطلّ، هَبْوٌ لاتكاد تتبينّه أول الأمر،كأنما هو كسرة رقيقة — جزء من ألف ألف من المليمتر من الزجاج الشفاف — قيل ادخلى الصـرح فلمّا رأته حسبته لُجّةً وكشفت عن ساقيها . وكان عليهما شعر خفيف .

ددق دق ددق دق ددق دق دق

قطار مصر أسرع من قطار السودان
جماعة ضخمة بكوم أمبو يهتفون
وصوت منفرد يقول
يحيا جمال عبد الناصر
بإمالة بين الصاد والراء وهو جهير بذلك
يحيا جمال عبد الناصير !
أول الغيث قطـرة

وفطن باطن وجدانه أن هذه النغمة سيكون لها صدى مُدوٍّ.
لايعلم الغيب إلا الله

اتتبه لانفراد ذلك الهتاف أيما اتتباه
وكأن ذلك كان منه حدسا

إنّ لها لسائقا عَشَنْزرا إذا وَنَيْنَ مرة تغشمرا

وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو

ذكر تفسير الجلالين أن البخارى روى أن مفاتح الغيب خمسة وهى آخر سورة لقمان

« إن الله عنده علمُ الساعة ويُنَزِلِ الغيـث ويَعلَمُ ما فى

الأرحام وما تدرى نَفْس" ماذا تكسبُ غدا وماتدرى نفس بأى أرضٍ تموت إن الله عليم خبير »

* * * * *

كان شاعرا وكان مرهف الإحساس من بيت كريم لا يملك نفسه من دعوة يدعوها وجفنه كرام يحبوها .
إذا نزل الأضياف كان عَذَوَّراً على الحيّ حتى تستقلّ مراجِلهُ
وكان الحاكم العام هدلستون يريد زيارة قريته . وأنبأهم بذلك. وكان هدلستون أخا حرب وسفر . وهو الذى فتح دارفور عام ١٩١٦ وكان يأمل إذ أنبأهم أن يعدوا له وليمة قرية . وكان ذكر أنه سيحضر وقت الفطور وأقل ما كان ينتظر خرفان تذبح وقد يذبحون ثورا أو ناقةً لإظهار السرور

وما فكر القوم فى غير ذلك أو نحو من بابه . إلا أن شاعرنا تقدمهم فى الذى ذهبوا إليه. « هؤلاء الإنجليز يجاملونكم إن أكلوا معكم من الخروف المشوى كاملا . أما المرارة (١) فلا تلائمهم ويستقذرونها . الرأى عندى أن نوافيه بنوع الفطور الذى هو معتاد عليه . » وجعل يشرح لهم كيف يمكنهم أن يستأجروا عربات وزمرة من طهاة الفندق الكبير وسفرجيته وأدواته . ذلك سيكلفهم أكثر من ثمن ثورٍ وناقة . وعشرة خرفان مع بخشيش الطهاة . وما يطهون ؟ كورن فلاكس باللبن من بعد جريفروت

---

(١) المراره : الكرشه والكبد والرئة من لحم الخروف تقطع نيئة معا ويحلب عليها الليمون وتؤكل نيئة .

بالمعلقة والسكر ثم سمك من عجل النيل لا يصطادونه من شاطئهم ــ وذلك ممكن ــ وسمك شاطئهم غض حلو ، ولكن يشترونه الأقة بثلاثين قرشا أو عشرين . ثم الطهاة يحضرن الزبد فى الثلج والبيض يقلونه مع لحم الشرائح « البيكون . » ولحم الخنزير ضرورى للنصارى لايصبرون عنه أبدا لأنه ألذ اللحوم ! الراجح أن النصارى يكثرون أكل اللحوم الخنزيرية ليؤكدوا خلافهم اليهود والخنزير حلّله بولس . ولا يعقل أنه كان فى مائدة عيسى التى نزلت من السماء ولا ذكروا أنه كان فى العشاء الأخير . وحلله بولس بما زعمه من أنه رأى رؤيا مائدة فيها كل شىء وأن المسيح تناول من كل ذلك أو أمر به أو أجازه ؛ شىءٌ من قبيل ذلك كان .

وسأل مسلم صاحبه هل الخنزير المحرم فى القرآن هو عَيْن الحيوان المدلل الذى يحفظ فى الظل بدنمركة ويطعم الكعك والطيبات ؟ ورحم الله ذلك المسلم السائل فقد قضى نَحْبَه وماكان سؤال مع سلامة النية ليضير وسأل مسلم آخر فقيل له (وكان يريد أن يتزندق) إن هذا اتجاه تشريعى .همّ الإسلام بتحريم اللحم كله، ثم اكتفى بالخنزير كما همّ بفرض خمسين ثم اكتفى بخمس ، شاهد ذلك قوله تعالى « كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيلُ على نفسه » . فلَوْ لم يتطوع بتحريم لكان لهم كله حلالاً . وما تطوع إلا لحكمة مما علمه الله . وكان فى هذا كالردع لزندقة السائل إلى حين .

وسألت فتاة بالتلفون وتلك آبدة: «لماذا حرّم لحم الخنزير؟» حتى الفتيات أنشأن يفكرن فى الزندقة ياللويلات .

وقال لها لقد ذكر الله السبب «فإنه رجس» ــ سورة الأنعام ــ قال

تعالى : « فاجتنبوا الرجْسَ من الأوثان واجتنبوا قول الزُّور »
ـ الحج . وقد كان الخنزير مما يعبده الكافرون الأولون،أى كان
وثنا وكثير من الدندرمة التى بأوروبا من شحم الخنزير فيها
نصيب واف . وكثير من أصناف البسكويت فيما بلغنى يدخلها
الخنزير شحمه لا لحمه،فإن تمسكت بحرفية النص فعسى أن تسلم.
هذا

وسار الحاكم العام إلى القرية التى فيها الشاعر،ينتظر شواء حنيذا.
ووراءه كانت عربة فيها سفرجية بالأحزمة والقفاطين والمربى المرمليد
والشوك والسكاكين .

وكان الشاعر جاءه وهو مهموم همًّا روحيًّا عميقا .

كان رئيسه المستر الإنجليزى دعاه ثم أخبره أنه وصله خبر سار
جدا . سار جدا. وذلك أن زوجته ستضع توأمين ذكر وأنثى .
ووضع الشاعر الليمون أمامه مذهولا : « ستضعُ ماذا تقول ؟ »

ـ نعم ، جاءنى خبر بذلك

ـ ولكن

كان هو يعلم المستر العربية ولم يكن يعرف الإنجليزية .

ـ ولكن هذا من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله .

ـ هذا لا أعلمه ياشيخ فلان

كان المستر مدرس الفنون فيه اتجاه إلحادى عصرى ، رجلا سوى
ذلك فاضلا حسن العشرة .

ـ الذى أعلمه أن زوجتى ستضع توأمين والاطباء عندنا يعرفون
هذا . وانتظر الشاعر حتى لقيه المستر ذات يوم جذلان . وضعت
زوجته ذكرا وأنثى وسمَّاهما .

وجاء الشاعر إليه وقص عليه قصة المستر وتوأميه وكيف ذلك ومفاتح الغيب • وقد كان ضميره حقا قلقا والشك قد هزه والتفاسير لم تعنه •

قال له : « الله يعلمُ ماتحملُ كلُّ أنثى وماتغيض الأرحام وما تزداد» إن الله انفرد بالعلم المحض المطلق لايُنْتَقَصُ ولا يستطلع ـ هذا وجه ؛ كتعليم ربك الأسماء ؛ فعلمُ الله بها ليس كعلم آدم • وعلم الله مافى الأرحام ليس كوصول الطبيب إلى معرفة ما عسى أن يكون فيها ؛ ثم قد علم ربك منذ « ألست بربكم » أى رحم منهن مخصب وأى رحم منهن عقيم • فلا يَتَخَلْخَلَنَّ إيمانك من أجل هذا العارض • وسلاه وأفطرا وشربا شايا•وعجبت زوجه لم صار إليه ذلك الشاعر ليسأله دون علماء الدين وهو لم يك منهم• وعجبت وهى راضية عما عجبت منه مزهوة به مسرورة •

* * * * *

وقالت الشيخة ترثى ذا ثكلها

بطّرنى ومابيَنهرنى   وفى قَمَـرَهْ سَفَّرنى

وهنا محل الشاهد

أى نعمنى فجعلنى ببره كأننى فى بطر ولم يكن ينهرنى وبلغ من إكرامه لى أنه كان يتحفنى بالسفر فى القمرة •

وأفندى بضبانة اصطلاح اصطلحه ولدا الحكيم لعمود التلغراف الذى يسنده طنب سلك واحد مشدود إلى وتد حديدى مغروس فى الأرض وبضباتتين أى بطنبين • والطنب بضمتين حبل الخيمة وجمعه أطناب قال أبو تمام :

حتى تركت عمود الشرك منعفرا ولم تعرج على الأوتاد والطنب
كأنهما شبها العمود الذى له طنبان بذَّبانة ، «ضبانه» أى ذبابة ، لها جناحان . ولم يشبها بعصفورة أو حمامة لكثرة الذبان آنئذ فى المنازل والذال تنقلب فى العامية ضادا . من ذلك قولهم الضباينة لقبيلة بشرق السودان أصلها لاشك من بنى ذبيان وإليها ينسب ولد زايد صاحب القدح المشهور . قيل كان ينحر الناقة .

كانت جدته تقول ذبحوا لنا اليوم جَزَرَة . وكان ذوق الناس لم يفسد فكانوا يحبون الإبل .

وكان ولد زايد يأمر من يأمرهم أن يجعلوا لحم الناقة كله «شرموطا» و «الشرموط» هو القديد ، أكثر ما يصنع من لحم البقر . وخبر ولد زايد يدل على جواز عمله من لحم الإبل . ولحم البقر أطعم وأشد أسرا فتقديده يميت من أسره .

وينشَّف الشرموط بأن يقطع اللحم شرائح مستطيلة فيها سُمْك غيرَ رِهافٍ عراض ، وليس بسُمْك عظيم ، وتعرَّض من الظل للهواء حتى تجف فتجفّ ولا رائحة لها ولا أدنى تغيير ، وتبقى على ذلك الدهر الطويل ونزول المطر مما يفسدها .

ويدَقُّ الشرموط ويوضع منه قليل مع «الويكة» المدقوقة ويسمى هذا مُلاح الشرموط .

واذا كثر دقيق الشرموط وخلط ببصل محمر فى السمن مدقوق وبويكة مدقوقة كان منه ملاح أحمر ثقيل الوزن عظيم الغذاء لذيذ الطعم يسمى ملاح التقلية .

والشرموط يُعَلَّق على حَبْلٍ ليجفّ ، وإن لم يدق ترك جافًا على الحبل هكذا ، وهو أصون له من أن يحفظ دقيقا . ولا خطر عليه إلا من القطط فإنها تحبه . وإذا وضع فى الماء الساخن ودُقّ أمكن عمل الكفتة (وقالوا إنها من أصل تركى وليست من الكفت بمعنى الأخذ والجمع) والمحشو (الذى يسمى المحشى ويجمع المحاشى) من الكوسة والبنضورة والباذنجان والفلفل الأخضر والمكرونة بولانجيز .

وأصل الشرموط من دون ريب من (شرط) زيدت الميم للدلالة على مايقع من تشريط اللحم وتشريره .

ولايعرف الشرموط فى غير السودان إلا بالتاء ويكون حينئذ علماً بالغلبة علم جنس على ضرب من النساء . ولا ريب أن أصل هذا الاستعمال من التشبيه كأنها لحم على وضم .

وبلغنى أن بنجد من يستعمل كلمة الشرموط استعمالها بالسودان وأنه بمصر قد يقال للخرقة البالية شرموط فهذا يقوى أن أصل الاشتقاق مادة (شرط) .

وإذا جعل لحم الناقة كله شرموطا ثم جعل مثلاح شرموط فهو مقدار كما ترى عظيم . أتظن أنه يبلغ ثلاثة أمتار مكعبة من الملاح (أى الإدام) ؟

وكل هذا كان يُصَبُّ مع الكسرة فى قدح واحد هو قدح ولد زائد . والكسرة بكسر الكاف خبز رهاف كأوراق السجائر إرهافا من الذرة المخمرة ويخبز على الصاج أو على « الدوكة » وهى كالصاج ولكن من الطين المحروق أو من « النهَمَّر » وهو ضرب من الحجارة ، وكان هو المستعمل فى أرض الجعليين .

وكان الناس يصطفون حول قــدح ولد زائــد ، فوج يجيء بعده فوج ، كما قال الفرزدق

قعودا وخلف القاعدين صفوفهم قياماً وأيديهم جموس وثطف

ــ أفنــدى لــر

أى لا سلك له وأصلها لعله تركى

* * * * *

ورأوا قاطرة سوداء مقلوبة أو متكئة على جنب كأن مدخنتها كان يخرج منها دخان كما يخرج من بخار « كفتيرة » الشاى قبل أن يستحر غليانه أول ما يبدأ يشعرك بأنه يغلى .

وكان القطار متجها إلى درديب نحو هيا ــ تقاطع هيا . وكانــت جدته تقول « الحية » وتحسب أن البجاة يخطئون فى نطق لفظها العربى . والحاء من أعسر المخارج .

اللهم غفرا . لعل الجيم والقاف والثاء والذال والضاد هن أعسر مخارج لكثرة ما يخطىء فيهن الناس القارئون الكاتبون .

رحم الله الذى قال :

قد كبِر برِنْ ببِرِنْ ببِرِنْتْ وعقلى إلى ورا

هذا أجود من أصناف من الشعر الحديث

* * * * *

وكانت الدنيا ليلا دامسا وهم ينتظرون القطار . كانوا قادمين من بلدتهم إلى كسلا وهذه « هيا » التقاطع . هذا كان قبل زمــان « أفندى لر ... أفندى بضباتتين »

لنعم الفتى تعشو إلى ضوءِ ناره طريفُ بن مالٍ ليلةَ البردِ والخَصَر

وبدا القطار كله أسود لولبيا . هـذا كان من تأثـير مرور العربات البيض بينهن الوصلات السود . هى وحدها بقيت منطبعة فى مخيلة فؤاده . وركبوا على أرائك خشبية عراض فى الدرجـة الرابعة . واستغرب استغرابا محضا . كأن استغرابه هذا كان سؤالا لم صير بهم إلى الدرجة الرابعة بعد الثانية ذات الخيزران والأنوار . وتأويل ذلك عساه كان هكذا :

عند التغيير « بهيا » لقوا جماعة من بنى بلدتهم وأقاربهـم فى الدرجة الرابعة قادمين من بورسودان . وقالوا لهم إن الرابعة أرحب ويد الله مع الجماعة وكرهوا لهم وحشة امتياز الدرجة الثانية . وهو يذكر بعد سواد الوصلات والصباح والشاى وبرتقـالا أو شريحة من برتقال أو برتقالة تقشر ، قدمها إليه منهم أصفر ظريف .
« ياظربف سف وتهنا   كيفك بالدنيا »

هـذا كان مكتوبا على حقة السعوط (1) رآها فيما بعـد ، والحقة عليها خطوط كالتى على قفطان الشاهية .
ليكاد الآن يشم رائحة البرتكان ويرى لون فصوصه .
ورأى الظريف الأصفر قادماً من نحو السوق بجانب الصريف يده إلى ميزان دراجة « بسكليت » وهو يقود البسكليت فخورا به ، والبسكليت يلمع حديده . وزهو الظريف به آنئذ كان مثل الزهو الذى يراه الآن ، أو قد رآه يوما على وجه بعض الناجحين الذين ارتقوا بأخرة يقودون لِمُوزين وتِلِنفِزْيون وترنسستر وكأس ويسكى ويخطبون عن مستقبل مؤسسة وخطرها من الوجهتين الانسانية والقومية .

---

(1) هو التبغ يسحق فيجعل دقيقا يتسعطه اصحاب الكيف ويضعونه فى افواههم .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مُغَلَّب

ويذكر إشراق النور بفجاءة لما كانوا بالدرجة الثانية فى القمرة باهرا ويد جده إلى لحية خفيفة : عجايب يا فقرا ، ديل ال عَلَّبِن منو ؟ » أى من أوقد هذه المصابيح ؟ علّب كانت تستعمل آنئذ فى معنى أوقد ، عَلَّبِن أى علبهن أى أوقدهن .

والآن تقول علب تعليبا والتعليب من أبجديات الاقتصاد السياسى القومى فى البلدان المتخلفةالتى تريد أن تتصنع وهى بحمد الله كثير، وما كانت تحلم كلمة العلبة التى ذكرها جرير :

إذا نهض الكرام إلى المعالى نهضت بِعُلْبَةٍ وأثرت نابا

بأن ينتج منها مثل هذا الاشتقاق .

عجايب يافقرا ولم يكن بالقمرة « فقرا » غيره

* * * * *

وقالت امرأة متشيطنة لصواحب لها وكن سائرات ورأين جماعة من « الفقرا » ثيابهم بيض عليهم العمائم وكأنهم ملتثمون : « سأغايظ لكن هؤلاء الفقراء وأريكن ضعفهم .. يافقرا هوى أفعل بيكم وأفعل بيكم . » وقالت كلاما قبيحا فأعرضوا ملتثمين يكادون يتقطرون خجلا . وقال أجرأهم : هوى ، غلنا لك زى ماغلتى لنا » يقلب القاف غينا مبالغة فى التفاصح .

وقال الثانى ، وكانوا ثلاثة:وانا ياسيدنا كذلك وابان فتحة الكاف.

وقال الثالث : وأنا يا سيدنا أشد من ذلكَ .

* * * * *

وطفق جده ينظر إلى المصابيح اللواتى « علبّن » علبهن سحر هؤلاء الترك (بضمتين أى الانجليز) المماسيخ .

ـ دحين كل ما ادور المحل دا يافقرا القى فيه زولا بيعاين لى واصـــــدّ .

(وكان إنما يرى شخصه فى المرآة .)

ددق ددق ددق

قال وقد ألقى عليه الدهر كلكلا وهو يفتل حبلا إلى جانب «المترة» (١) كنت أيام الشباب أركب حصانا إلى وادى أب سلم . وكان أخوه يدخر الحبوب حتى إنهم فتحوا مرة مطمورة قديمـة مـن مذخوراته فوجدوها سوّست . وأنقذ الناس من مجاعـة سنة ٦ وكان عنده السمن والتمر « السّكوت » الغلاظ .

وهل حقا كان غنيا وله مال ؟

حملناه فى جراب على فمه شعير تنؤنا بحمله فلا أدرى أين ذُهِب به ولقد حفروا كل مكان فكأنما طارت بالمال عنقاء مغـرب .

* * * * *

وذاكرته تتجاوز به عهد سطوع النور بفجاءة عليه وعلى جده معاً إلى أبيه يخطو عليه ثياب بيض ومخلاة فيها اللحم السمين جيء به من الداخلة (٢) وأمامه الآن أكواب الشاى ، كلّ الأكواب التى صُبّتْ أكوابه ، وأهله منتظرو اختياره صابرين .

والحمـارة أم ذنيب وحلت فى الخور وهو يقدم رجـلا وفـزع فأخرهما إذ وحل فخاف الغرق

* * * * *

---

(١) ساقية الماء تكون على بئر لا على النيل نفسه .

(٢) الداخلة : اسم مدينة اتبرا لما كانت حلة صغيرة .

وغرق مرة وكان لايعرف العوم فملك نفسه وحبا من حيث كان إلى مكان كان ضحلا تذكّره وأعانه على ذلك معين فنجا •

* * * * *

وبينما هو ينظر سقط على عينه « كعكول » • وكان الناس اذ ذاك يجنون الصمغ ويقرظون القرظ ، وكانوا عربا •

العطـوى ال جـانــا دابـّـــه

بســـلل فى رُقـــابـّـــه

سنّك لبَنْ زولاً ظريـرف حلابـّه

يميلون الألف من «حلابه» جهة الواو فتوشك أن تكون «حلّوبه» بلام مشددة بعدها واو •

الاخضـــــر ماشفتــــنّه

تجعل الضاد من الأخضر دالا ولا تنطق الهمزة المفتوحة ولكـن تشدد اللام كأنك نقلت فتحة الهمزة إليها • وشفتنه بتشديد النون مضمومة أى رأيتن إياه (فصلنا الضمير هنا للتوضيح)•والأخضر أى الشاب ذو اللون الضارب للسواد

العقـــــر مـــا بيـلدَتـه

بتشديد القـاف جمـع عـاقر أى العـاقرات لا يلـدن مثله

عشرين ريال من سرجه ما ُبد لتّنـُه

أى إن رأى عشرين ريالا على الأرض فإن ذلك لا يستخفه فيجعله يتدلى من سرجه ليلتقطها ــ هذا من كبريائه • وكان الريال عظيما آنذاك والكعكول الصمغة المستديرة المجتمعة•ويحسبه سقط على عينه اليسرى

* * * * *

ورأى الوابور الذى كان يقـدم ليحمل بالات ـ لابل ـ شوالات القطن لترسل لتحلج وتجعل بالات .

ددق دق ددق دق

* * * * *

هنا أيضا بكادلى وشارع أكسفورد كما فى لندن ، والمبانى شديدة السواد ، ومما كان سيزوره المصنع الذى به يغزل قطـن السودان .

رآه يصب فى صبّابة فينهمر منه كالماء ، ويتطاير منه كالزبد، فأما الزبد فيذهب جفاءً ، ويستمر الذى كالماء المنهمر . قال الرجل الشديد المراس فى وجهه ، : « نعرف طول فتلة القطن هكذا . » وفرك من القطن بين أصابعه . وهذا نهير يجيئنا ـ (قال نهر بلا تصغير) ـ بالصنادل من ليفربول ، يجىء من القناة ، والفحم هناك، واشار إلى مكان منجم ،

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما   يظنان كل الظن أن لاتلاقيا

هذه دروس الجغرافيا التى كانوا يلقوننا إياها فى المدرسة الأولية التى كانت تدعى الكتاب : منشستر وليفربول وتشتهران بتجارة القطن ، ليدز وبرادفورد وتشتهران بتجارة الصوف ، برمنجهـام وشفيلد ، الصلب والآلات القاطعة .

* * * * *

أنتم متأثرون بالتعليم الانجليزى لانكم كنتم مع الانجليز، كما يكون الخـدام مع مخدومه أو سيده . لم يخطر له قط أن يقول لأن الانجليز كانوا معكم أو حكاما عليكم أو مستعمريكم أو ما شئت مما لا يفيد معية الخدمة

* * * * *

وقد ضربه قرب عينه عود ناتىء من صريف وكانوا يجرون فى حلة الحلنقة بكسلا •

* * * * *

قال عامل الحانة بأسنان فى بعضها تفليل أو سواد ، متأسف ، لا نخدم السادة الملونين ، وانصرف السيد الملون إذ مباركون الضعفاء المتواضعون لأنهم سيرثون مملكة السماء ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين • » يفزعه شيئا أن يكثر الاستشهاد بهذه الآية أن المصعب بن الزبير خطب بأول القصص ، وأشار يمثل أعداءه بهامان وفرعون وهلم جرا • وكان من أمره أن قتل بمسكن وقتل ابن الحوارى أخوه بمكة ولا فزع • فقد كان ينبغى للمصعب حين تلا أول القصص ألا يحصر آيات الله العراض فى الامثلة اللاتى مثلهن بها • وكان أخوه رضى الله عنه أخطب منه • وعن سعيد بن المسيب أنه قدم معاوية وابنه وسعيدا وابنه فى الفصاحة وقال : ليس ابن الزبير بدونهم وكأنه ذكر أن لاماء لكلامه • وكانت فى ابن الزبير شدة • والذى ينسب إليه من البخل أحسبه باطلا • والشواهد التى يستشهد بها نحو « إن وراكبها » [1] « أكلتم تمرى وعصيتم أمرى » أدخلُ فى باب لذع اللسان منها فى البخل ، وأحسب هذا ما عناه ابن المسيب حين تحدث عن فصاحته فذكر ماذكر •

وينسبون تضعضع أمره إلى البخل ، فإن جاز نحو هذا فلماذا لم يتضعضع ملك عبد الملك وذكروه بالبخل وجعلوه من باب التدبير

(١) قال له احد من كانوا يميلون الى بنى امية وكان قدم عليه ليعطيه فلم يعطه : فلعن الله ناقة حملتنى اليك فقال له ان اى نعم وراكبها وهذا يدل — مع اللذعه — على سعة صدر منه وماكان قائل هذا له ليجسر على قوله عند زياد مثلا

ومن أسباب نصره ، وبنحو ذلك ذكروا أبا جعفر المنصور . ولماذا لم ينجح المصعب وكان كريما ومهر ابنة طلحة ألف ألف فقيل يُضَعُ الفتاة بألف ألفٍ كاملٍ وتموتُ سادات الجنود جياعا والناس مولعون بحسد الملوك .

* * * * *

وذُعِرَ من مرأى الوابور ومسمعه ذعرا طار منه بقدمى طفل حتى وقع فى شوك الزريبة فهو يزار به موسى العزب .

وها هو ذا قاعدا أمام شبح جدار يعصر ورم الوعى فيخرج الشوك أسود كل شوكة لها ألم لذيذ ، متى شاء ذكره فخيل إليه أنه يحس به كله من جديد . كان من هذه الآلام واللذات الخالدة مدى العمر . وأشد ماتكون اللذة حين يخامرها كالألم أو الألم بلا كاف تشبيه . ولله درشيلى إذ يقول :

Our sweetest songs are those that tell of saddest thought.

ولولا زيارة موسى لقد كانت قدماه قطّتنا . فالشوكة فى باطن القدم قد تنبت نبتا ثم يصير نبتها قطنه والعياذ بالله. «لمسنا التقيلة» (١) أى التراب.وموسى العزب «راجل السبوت خرّاج النبّوتْ» إذا زار ذو النبت ضريحه سبع مرات ، مرة كل سبت ، متواليات أخرج النبت والقطنة . وصيّرهما «وعى» أى مدة أو شيئا هيناه ويقال إنه إذا صار النبت فى الرجل قطنة فليس دون القطع علاج. والشوك إذا دخل العصب الحى لايصير قطنا ولكن يذيبه اللحم والدم اللذان ظن زهير أنهما لايصنعان شيئا فى قوله « فلم يبق إلا صورة اللحم والدم » (٢)

---

(١) اذا ذكرت النساء واحيانا غيرهن مرضا منكرا لمسن الارض تعوذا وقلن لمسنا التقيلة . (٢) صدر البيت قوله لسان الفتى نصف ونصف فؤاده.

والشوكة القديمة يجعلها بلا ها شديد الضرر ، وتكون سامة لما يجتمع فيها من قذر . وشوك السنط والطلح كل ذلك غائل. وليس بدونهما شوك السدر الذى كأنه خناجر صغار .

وقول الآخر يصف قطعة ثوب نسجت له :

حوكت على نيِّرين إذ تحاك تختبط الشوك ولاتشاك

فيه تزيده.أو يكون ناسجه قد سبق إلى صنع الذى يسمى «المشمع» من الأقمشة الخشنة المتينة . وفى الأعراب الأكاذيب . زعم أحدهم أنه علق قربة ماء على فرع شجرة فأكلته الأرضة وأكلتها وبقى الماء وحده معلقا فى الهواء شأنه شأن البيوت المزركشة المصنوعة من الما غرفات فوقهن غرفات ، فى كتاب دقائق الاخبار فى ذكر الجنة والنار .. ومن قرأه وهو صغير أدخل فى قلبه إخباتا عظيما . ومن قرأه وهو كبير فقد يعينه على تقديم رسالة للدكتوراة . وأكثرهن من هذا الضرب . وولى زمان « الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما » .

ويرى المعاصرون من علماء التربية ومعهم ابن خلدون أن التحفيظ يهلك ملكة التحليل . وأجود أن يقال إن التحفيظ بلا طريقة ذات فن وجمال وأدب قد يفعل ذلك .

وموسى العزب كما يخرج « النبت » يفل شوكة الكاذب إذا حلف عنده ، وفى ضريحه سيال طوال ، أعنى حرم ضريحه . ومن حلف عنده كاذبا نُكِبَ لايختلف فى ذلك اثنان . فلذلك يتنكب الناس أن يحلفوا عنده .

* * * * *

وبناحية أتبرا ولى صالح يقال له عبد المعروف له قبة ظاهرة

ذكروا أنه حلف عنده رجل كاذب فخرج من البنية خروفاً يقول باع باع .

واستجارت بعبد المعروف أمة أيام المهدية كرهت جــور سيدها عليها أو أبقَتْ كما يأبَقُ العبيد . فجاء يناديها لتخرج من خارج البنية وهى لا تجيب وهو لا يجسر أن يقتحم عليها البنية من خوف أن ينكبه عبد المعروف غيرة على حَرَمه . وجاء بقارى (١) له حصان وحربة فوجده على تلك الحالة فسأله ، فعلم من أمره ، فدخل فأخرج الأمة صاغرة داخرة . واشرأبّ الرجل ليشــكر البقارىّ ويقود الأمة . فقال له البقارى إنك عجزت أن تأخذها من هذا الميت ، أفتطمع أن تأخذها منى أنا الحى . وكان البقارة آنئذ حكاما ، ومضى بها يستن . ولا شك أن الشيخ عبد المعروف قد أجارها من سيدها أمنع جوار وأكرمه ، نفعنا الله به وقدس سره .
وأب بشر أبو بشرية أغير صاحب ضريح .

قالوا إن الفكى أحمد ود جلال الدين زاره مع حوار له (أى تلميذ له) وكانت معه قطعتا نقود ، إحداهما جيدة كبيرة والأخــرى دونها : ريال جديد وآخر ممسوح . وأعطى الفكى حواره الريالين وأمره أن يضع الجديد فوق تربة أب بشر ويحتفظ بالآخر . ووضع الحوار الريال المسهوك فوق التربة واحتفظ بالجديد ، ثم سار . وفى الطريق التفت الفكى (الفقيه) أحمد ود جلال الدين (ود أى ولد أى ابن) إلى الحوار وقال له أنت ما وضعت الريال الجديد فوق التربة . وأراد الحوار أن يضطرب ، فقال له الفكى أحمد

---

(١) بقارى ، رجل من قبيلة البقارة وهم رهط الخليفة عبدالله من عرب غــرب السـودان .

يثبته « جاءني أب بشر نفسه وقال لي أخذت ريالى ورددت عليكم ريالكم » ـ دحين اتبن ريالك .
اى انظر ريالك هل تجده . أتبن أى فتش وانظر أصلها ثبن باب ضرب . ونظر الحوار فوجد الريال المسهوك . لقد أخذ أب بشر رياله الجديد . ولعل الفكى أحمد كان نذر زيارة أب بشر .

وأكثر أهل الدامر يزورون أب بشر للزيانة ، وما كانوا يتهاونون فى ذلك مع أن مكان أب بشر بعيد ، وراء فتوار ، غرب النيل ، قالت المادحة :

ويا اب بشر ال ورافتوار

ولم تكن المواصلات إلا الحمير « سيروا فيها ليالى وأياما آمنين.»

والزيانة حلق الشعر . وكل قوم لهم شيخ يحلقون عنده عقائق أطفالهم . يتركون من شعر الرأس شيئا يرمز إلى العقيقة ويحلقونه عند الشيخ . الولد الصغير لا يحلق رأسه بالموسى ولكن يجز من أطرافه بالمقص ، وتترك قطعة مربعة فى مقدمته تسمى القصة (بضم القاف) . أو تترك قطعة مربعة فى المقدمة وأخرى مستديرة فى مؤخرة الرأس فوق القذال.وهاتان تثبتان على الرأس لاتحلقان ولا يُقَصُّ منهما بالمقص إلا يسير جدا . وتحلقان عند الشيخ ، شيخ الزيانة ، وهو أبداً ضريح .

وقد يترك للولد ذؤابة أو ذؤابان . وأكثر ما تترك الذؤابة إذا مرض الولد ثم تُذِرَ له أنه إذا شفى حلق من شعره عند الفكى فلان وذبح عتود نذرا للفكى فلان ، وهذا يكون غير شيخ الزيانة، كأن الذؤابة تفردُ عن باقى الشعر الذى هو نصيب شيخ الزيانة. والذؤابة التى يُنذَر بها تسمى « قنبورا » ولا يكون للولد قنبور

بعد البلوغ إلا أن يكون لم يف بالنذر.وحينئذ يستمر معه القنبور إلى حين يتهيأ له الوفاء . وحينئذ يجهد هو فى تغطية ذؤابات رأسه لأن الذؤابة (القنبور) علامة الطفولة والكبير يخجل منه . ومن أجل هذا يقال للأحمق « الدلاهة أم قنبور » و « أم قنابير » . وفى نص هذا المثل مايدل على أن البنات أيضاتنذر منهن ذوائب.والغالب على البنات ألا يحلق من شعرهن أو يقص . وإنما يضفر ضفائر صفوفا . ثم يذهب بهن أهلهن إلى شيخ الزيانة فيحلقن شعرهن كله هناك . ثم ينمو شعرهن من جديد .

وكثيرا ما يؤخر الناس حلق البنت لبعد أب بشر ، ومشقة السفر إليه وشدة الهجيرة عنده . والبنت تسافر معها الأمهات والقرائب وفى حركة النساء بطء وثقل وأعباء .

وتمرض البنت ويموت جناها إذا زوجت ولم يحلق شعرها عند أب بشر . ولا يترك اب بشر حقه . فيضطر أهل البنت أن يذهبوا بها إليه وأن يحلقوا شعرها عنده .

وبعض أهل الدامر زيانتهم عند حسين ود حمد وهو من أركانها سرع النجدة للداعى رضى الله عنه ،

وشيخه هو عبد المقيت — (أو عبد المغيث وعلى هذا أصوب) . هاهم أولاء وسط الصحراءحولهم السلم والشوك وفوقهم الهجيرة. ولا يذكر أ أحضروا ماء معهم فى قربة أم أخذوا ماء من بئر فى الطريق . وكانت على رأسه دائرة شعر صغيرة حلقت عند عبد المغيث .

وكان سائره حـُلِقَ من قبل ،فى نفس اليوم عند الشيخ المجذوب. وكان عجيبا عجيبا أن صير به من ذلك « المقام » ذى الرايات

والكسوة والأبهة والركائز والظل والعِطرِ والبخور والسادنات العدد . هنا قناة قديمة وعصا قديمة كانتا رايتين وقبر بالٍ . والحارسة العجوز جدا ثالثتهما . كان عجبه كما عجب حين صير بهم من الثانية إلى الرابعة فى قطار « هيا » أعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر .

وإنما كان شيخهُ عبد المغيث وليس الشيخ المجذوب بشيخ زيانة . ولكن قد نذر أبوه أن يحلق هناك شيء «كالقنبور» ولكن لا « قنبور » ولا عتود .

وعبد المغيث وعبدالمعبود بيّنهما الشيخ المجذوب (صاحب المناقب) فيما ذكروا . قولنا صاحب المناقب أى هى مناقبه ولكن دونها ابن أخيه الشيخ الطاهر .

ولعل عبد المغيث وعبد المعبود أقدم عهدا من اب بشر أبى بشرية، إذ هذا عند الناس من الصالحين ، وهما عندهم من السحابه بكسر السين أى الصحابة .

ولا تعجبن من هذا فقد ذكر بعضهم (أحسب أن المختار السوسى ذكر ذلك فى كتابه المعسول) أن أصل إسلام البربر بالمغرب من جماعة منهم صحابةٍ وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فبايعوه وعهد إليهم بنشر الإسلام فيما دون البحر إلى الجبل والصحراء .

وفى البربر غيرة . وحرصهم على أن يكون منهم صحابة شاهد على قوة رابطتهم بالإسلام رابطة لقاء لصاحب الرسالة نفسه كما ترى .

وعند بعض الباحثين المعاصرين أن نحو عبد المعبود وعبد المغيث

ربما كانوا من آثار العنج (بفتحتين) الأولين. والعنج أهل السودان فى الدهر السالف ، فى عيونهم عمق وسعة ، وعظـــام وجناتهـــم كأنهن بوارز ومنهن جمال فتياتهم ، وشعورهم لينة ، وما خالطها من القساوة من الدم الزنجى ، وألوانهم شديدة السـواد يضرب إلى الزرقة ، وسمرة قمحية ، وفيهن الصفرة ، وهم الذين سماهم هيرودوتس بالاثيوبيين طوال الأعمار .

ويقال إن كهنة أمون فرّ بعضهم من تجديد إخناتون وتوحيـــده فآواهم الدامر .

فعلى هذا يكونان من عهد كهنة أمون . ثم لما عمّــت النصرانيــة العنج صار فى موضعهما قديسان . ولعل أحدهما الذى تبع النجمة عند مولد المسيح . ثم لما جـاء الإسلام بيّن الشيوخ فى موضعهما صحابيين أو وليّيـن هما عبد المغيث وعبد المعبود . ويقال إن جارية سقطت فى بئرٍ فإذا بضوءٍ — أو وجه مضيء — ورجل يطعمهـا ويسقيها . ولما اهتدى أهلها إليها وجدوها بخير وقصت عليهـم خبرها . فعلموا أنه ولى صالح من عهد الصحابة أو عهد قديـم فبيّنوه ثم دثر ثم أبينَ وهو عبد المعبود .

وكون عبد المغيث شيخ زيانة من شواهد قدمه .

ويقال إن الزيانة أصلها ضرب من القرْبان والضحية . وكان الناس فى أيام الشرك والوثنية الأولى يقربون الضحايا البشرية إلى الآلهة. من ذلك ما يذكر من أن أهل قرطاجنة كانوا يضحون الأطفـال لملتوْخ .

ثم جعلوا عـذْرةَ العذارى مما يضحى به مكان النفس الآدمية. فصارت الفتيات مما يُفتَضَضْنَ فى بيوت الأصنام. ولا ريب أن

دهورا سالفة كانت تذبحهن مبالغة فى تقريب العذرة . والوأد من هذا أو قريب من مذهبه .

واستبدل الشعر فجعل مكان العُذرة . ومن أجل هذا ماكثيرا تجد الشعر يجعل رمزا للقوة . من ذلك خبر شمشون .

بل يبدو أن الشعر قد جعل مكان النفس أحيانا . مما يدل على ذلك أن قدماء المصريين فى دهرهم السحيق كانوا يضحون ذوى الشعور الحمر للقمح حين حصاده . فتكون تضحية الشعر نفسه حلت مكان قتل صاحبه . وأحسب جز النواصى عند العرب إذا ظفروا بأسير وعفوا عنه أصله من هذا ، يجعلون شعره مكان رقبته .

وإن صح كل هذا الحدس فتكون مواضع الزيانة كأنها قد توورثت منذ عهد كوش والفراعنة . ثم لما جاء الإسلام تأتى دعاته إلى تثبيته من طريق الاحتفاظ بمظهر العبادات القديمة ، بأن احتفظوا بضرائحها ومواضع معابدها . ثم حولوا كل ذلك إلى الاسلام أو ماينخرط فى العقيدة الاسلامية فتقبله .

والحلق من عبادات الساميين القديمة ولعل الفراعنة وكوشا والعنج أخذوه من أصل سامى . ولعل العنج من أصل عربى ثم خالطوا بالنيل أصولا زنجية ونوبية .

ويروى عن السيد الحسن المرغنى رضى الله عنه ونفعنا به أن أرض شندى من امتداد الأرض المباركة التى كانت لثمود ، وهى أرض الله ، قال تعالى « فذروها تأكل فى أرض الله . » وعن ود الفكى على والفكى السيد ود الطاهر رحمهما الله أن الفصيل ، فصيل ثمود هرب إلى وادى الهواد وما حوله وتلك أرض العنج حيث يحتفر أهل الأحفار آثارهم .

وأنه ـ أى فصيل ثمود ـ سيبقى ما شاء الله ، حتى يتـأذن الله بخروج دابة الأرض فيكون هو دابة الارض ، قال تعالى: «وإذا وقع عليهم القول أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » • وقـد يذكر أهل هذا الخبر أن البحر الاحمر لم يكن موجودا • أو حديثهم[1] هذا كان كناية عن يسر عبوره « حتى إذا كنتم فى الفلك وجريـن بهم بريح طيبة »

وفى الطبرى أن الفصيل صعد القارة (أى الجبيل الصغير) فارتفعت به حتى صارت جبلا فمات بها •

وفى تاريخ هيرودوتس (الترجمة الانجليزية) أن عربا مـن الاراضى الواقعة جنوب مصر كانوا فى جيش كسرى بن دارا الاول فى الحرب الاغريقية الفارسية الثانية قبل زمان المسيح بقرون • وما الارض الواقعة جنوب مصر الا السودان •

وأحسب أن هجرة جعفر بن أبى طالب والصحابة رضوان الله عنهم انما كانت الى سواكن فأرض النيل • جـاء فى السـيرة ان سيدنا الزبير رضى الله عنه نفخ قربة وعبر بها النـيل • هـكذا فى السيرة • ولا أظن أن فى حبشة غندار وأكسوم نيلا يعبر بقربـة منفوخة وانما هى مهاو ومدافع • وما أشبه أن يكون المعبور نيلنا الاتبراوى أو الأزرق أو العدلاناوى ، أى النيل الكبـير • والله تعالى أعلم •

وبلغنى أن بشرق السودان اعتقادا شائعا بين الناس أن الزبير اجتاز ببلدهم وثم شجرة يقال انه ربط عندها جواده • وكان الزبير رضى الله عنه من فرسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى

* * * * *

هـذا

وموسى العزب ، إذ يُحلَف عنده معه أربعة من رهطه . اثنان أبوان واثنان كالابنين ، إذ هو لم يتزوج فيعقب . والنساء يقلن « الخمسة ال ما بيحملوا اللمسة » أى الخمسة الذين لا يحتملون أن يتهاون بقدرهم أحد ، فمن حلف عندهم كاذبا نكبوه .

ومواضع قبورهم وهى مصفوفة معا ، فيها كالدلالة على قرابتهم بالنسبة إلى موسى.موسى متقدم فى أقصى الجانب الغربى كموضع الإبهام من اليد . وأبوه وجده فى مواضع السبابة والوسطى على التوالى هكذا . وابن أخيه فى موضع الخنصر وحفيد أخ له آخر فى موضع البنصر .

والذى فى موضع الوسطى هو جده حمد بن عبد الله راجل درو بن محمد بن الحاج عيسى ود قنديل ود حمد ود عبد العال ود عرمان فيما ذكروا والله تعالى اعلم .

وحمد ود عبد الله يسمى ضمين الدامر . قيل ضمنها من الجن فلا يصيبون بها أحدا من بنيه ، ولا أحد من بنيه يصيب بها أحدا من الجن ، بأن يداوى ممرورا مثلا . وقيل ضمن شاطئها من التماسيح أن تخطف أحدا عنده والراجح أنه ضمين الدامر أى المدفون فيها، ضَمّن جسدُه إياها . إذا أجداده مدفونون بدرو .

ودّرو جنوبى الدامر وهى الآن فى حيِّزه . وقالوا عبد الله راجل درو أى رجل لله دره فاختصروه ، وهذا من تخريجات الفقراء (١) كما ترى.وقال كروفورد فى كتابهعن الفونج إن «درّو»

(١) الفقراء أى العلماء الصالحون المفتقرون الى الله وفقراء الدامر علماؤها .

هى ملتقى أتبرا بالنيل وعنده أنها اسم الدامر القديم أو ناحيتهـا فيكون معنى « راجل درو » أى ولى الدامر وصالحها •

ومن أمثالهم :

يادر̄و جـاك خـير

جـاك موسى ود تمير

أى جاءك يادرو خير وهو موسى ولد تمير • قالوا لما مات موسى ولد تمير ، غرب الدامر ، ارادوا ليحملوا نعشه إلى مدافن بالغرب، ناحية « سميح » مثلا • فثقل النعش حتى كأنه جبل وأبى أن يرتفع على أيديهم • فلما أقبلوه الشرق ، جهة در̄و ، طارو عبر النيـل واستقر حيث مدافن درو الآن •

وزيارة عبد الله راجل در̄و يوم الأحد وهو مدفون فى مقبرة جده الحاج عيسى •

وفى مناقب الشيخ أن الدامر هو الدامر لفظا الثامر معنى • وفى قوله الثامر كالأشارة إلى تمير (كأنها تصغير تمر ولكن مكان اليـاء الساكنة بطح من إمالة) والتاء والثاء غير متباعدتين من حيث يسر صيرورة الثاء تاء •

وفى خبر الصالحة بنت أسد صاحبة المطمر ، انها حين تزوجها الفكى حمد ود الميدوب ، وكانت قد بلغت عمر سارة ، رأت النبى صلى الله عليه وسلم فأشار عليها بزيارة الفكى محـمد ود ثمـّيْـر (ضـمّـير بامالة الياء) فى وادى قباتى بسبع دمجات • فذهبت اليه وزادت عليهن سبعا فقال لها لاناخذ إلاحقنا واحتلب لهاناقةفى قرعة وجلست على فروةله • وماهو الاقليل حتى قال لها : قومى ياالفقييره نجست الفروه • وذلك أنها قد جاءها الحيض • قالوا فقـالت

للفكي حمد من بعد وكان مشغولا عنها بالذكر كما هى كانت ذاكرة أيضا : تركنا السنة . فرزقهما الله منصورا وهو جد حاج حمد ود منصور أمير الدامر الذى قتل رميا بالرصاص أوائل الفتح الثانى .

والشاهد ثمّير لقربها من تمير والتامر وليس المطمر من ذلك أيضا ببعيد .

وقالوا أصل الدامر من أن حمد ود عبدالله أقام به فقالوا حمد دامر أى أقام ، ينطقونها «دومر» بإمالة الألف نحو الواو كأنهم يجعلونه فتحةً بعدها واو ساكنة ، أو قريباً من ذلك لايبلغه . وإمالة الألف إلى الواو مروية عن العرب فى الصلوة ونهى ابن عباس عن كذا وكذا الحدَو ، أحسبه نهى عن رمى الحدأ . (جمع حِدْأة) وقالوا أصله من دامر الليل كله إذا أقامه عابدا وهذا كأنه من تخريجات الفقراء .

وما أشبه أن يكون أصل الدامر من الدميرة أى الفيضان . ذلك بأنه يصلها فيضان نهرين عظيمين : النيل والأتبراوى وهو ذو فيضان ضخم ، وقيل إنه وحده كان هو النيل الذى يصل مصر فى الدهر الأول الغابر جدا . وكان النيلان الأبيض والازرق محبوسين وراء خانق السبلوكة (وأصوب هكذا : السبلوقة) .

وزعم بعضهم أن أهل السودان الاقدمين نحتوا الصخر عند السبلوقة فجرى النيل الكبير — ومن أجل هذا قيل فى المثل : من سنة حفروا البحر ، فلو انهم لم يحفروه بأيديهم ما قالوا ذلك والله أعلم .

وإن يك كهنة أمون قد نزلوا بالدامر حقا ، فإنهم مما كانوا يصنعون

الفيضان بعد الفيضان • فيكون معنى الدامر على هذا ، صانع الفيضان ، أو مكان صنع الفيضان أو دار السقياء وهذا ليس ببعيد من معنى المغيث فى عبد المغيث ولا من معنى المقيت لأن الميم مضمومة فى الحالين والقوت من الغيث • وليس ببعيد من معنى الشامر •

ولعل العنج الأولين كانوا يسمون الشيخين أو قل الهيكلين بالمعبود والمقيت أو المغيث جهلا منهم بأن الله هو الذى ينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام •

ولعل الدامر اسم عربى صريح نقله العرب إلى النيل منذ دهر قديم • والراجح أن أكثر هجرتهم إلى السودان إنما كان من طريق البحر الاحمر رأسا • وفى جزيرة العرب فيما بلغنى موضع يسمى الدامر قريب من دومة الجندل • ومن عجب أن الدامر الغربى الذى ذكره بركهاردت اسمه الدومة • فتأمل •

ويقال للحبال التى ترفع بها أخشاب الدوم « دمير » • والحبال من سعف الدوم كما لا يخفى • فالدوم والدمير مرتبطان كما ترى والله أعلم •

وأبو موسى العزب ، الذى فى موضع السبابة هو على أب دامع (أبو دامع) ود (ابن) حمد ود عبد الله • سمى أبادامع لإدمانه البكاء عبادة وورعا • وكان له إخوة ثلاثة ، إبراهيم أبو الشضيفة القاضى جد القضاة • وعبد الرحمن أب شله وله عقب وقد يحلف به من غير ذهاب إلى بنيته وحامد أو محمود تيتا ، أصلها أحسبه تأتاء إلا أنهم يجعلون ياءَها كألف ممالة ، جد المحموداب أولاد تيتا •

وابناؤه ، أى أبودامع ، أربعة هم موسى العزب هذا وكان عزبا وعيسى جدا العسياب أى بنو عيسى وحمد وترك بنتا هى مشاهى ،

ومحمد المجذوب . وينطقون الجيم ياء والذال دالا ويكادون يسكنون الميم الأولى من محمد ، وهو جد المجاذيب ، قيل قتل مع أحد الخارجين على الملك . وهو فى كتاب نعوم شقير محمود وهذا وهم . كما أنه فى كتاب بركها ردت المجدول ولا ريب هذا خطأ من الطابع إذ بى B وإل L تتشابهان فى خط اليد هكذا

وقد يكون مات بسنار والقتيل غيره . وعرف قبره بعض الصالحين بسنار عن طريق الكشف أو دلته عليه الحارسة .

وولد محمد المجذوب ثلاثة هم الفكى حمد ود الميدوب وأمه آمنة بنت اب راس الابراسابية وزار بروس الدامر فى زمانه أو نحو ذلك وأحمد ود الميدوب وعبد الماجد الضرير ود الميدوب. وأحمد وعبد الماجد الضرير شقيقان وهما أسن من أخيهما الفكى حمد وعبد الماجد الضرير أسنهما وأمهما فاطمة بنت حجر المحمدابية من حجراب (١) وهيب ، كانت تحت حمد ود على أب دامع وولدت له مشاهى . فمشاهى أختهما لأمهما . وتزوجها أخوهما لأبيهما الفكى حمد . فولدت له الفكى عبد الله النقر وأخاه محمدا راجل السفينة أم دير .(أى صاحب السفينة التى لها دير وهو الخشبة التى يجلس عليها الجالس فى السفينة تكون من طرف منها إلى طرف)

وعبد الماجد الضريرى « أب توباتا حريرى » هو الذى فى موضع الخنصر فى بنية موسى العزب ، القبر الثانى من الشرق ، وأقام غرب الدامر وبنى مسجدا آثاره ترى وله عقب باق بالدامر والأضية والفكى حمد ود الميدوب ذكره صاحب طبقات ولد

(١) اب : تفيد النسب ، الف طويلة وباء فلن قلت عثماناب كان معناه عثمانيين وحجراب اى بنو حجر وهلم جرا .

ضيف الله وقد شاهده وذكر ابنه الخليفة أحمد أبا جدرى ويستدل من هذا ان أبا جدرى خلف وأبوه حى ، وهكذا سياق القصة المرويــة .

وكان الفكى حمد عظيم الصلاح والبركة حج وأخذ الشاذلية على الشيخ على الدَّرَاوى وكان طريق أبيه القادرية وكان يعرف باسم « طيب النيــة »

قالت بنت الطيب ، إحدى بنات الطيب ودالأمين ودالفكى حمد(١)، وأخوات أبى القاسم الريس الذى قتل بدارفور أو بحر الغزال (الراجح انه قتل بالفاشر) بعد مقتل سليمان بن الزبير رحمه الله وانتقم من قاتليه جسى وغوردون وإسمعيل أيوب والخديوى أجمعين وقد فعل . قالت : « ببركة طيب النية ، نحــن ، المكابرابــية ، ان شاالله مالنا فيها ذرية » دعت بذلك حين الطيب ولد ود أحمد ود الميــدوب وابنه عثمان تزوجا كلاهما اختين مــن المكابراب .

والطيب ود محمد ود أحمد موضع البنصر فى بنيــة موسى والأول من الشرق . وخارج البنية جده أحمد

وأما الفكى حمد فمدفون وسط الجبانة الكبرى وقبره ظاهر وعنده حجر أملس .

وكان بصيرا بنجارة السواقى ، أعنى الفكى حمد . وكان ربما تفقد سواقى بنى عمه وكان بعضهم له خصما فأصلحها فيسألون عبيدهم فيقولون : « أصلحها طيب النية » يعنون الفكى حمد .

وكان فقراء الدامر يحرسون القوافل فلا يُعتَدَى عليها . وفى زمن الفكى حمد كانت الحراسة كلها إليه . وكان ذهب ابن

---

(١) أم هى بنت الطيب ود الفكى حمد ؟ الله اعلم.

له صغير مع إحدى القوافل يحرسها باسمه وكانت له عُصَيّة بيده وعرض له كبير المكابراب (أي بنى مكابر) فى وادى المكابراب (أى وادى بنى مكابر) . أحسب كان اسمه « دنبيــل »

قالوا : وكان كبير المكابراب يمسح ساقه بالزيت ويمدها ، فإن مررت قريبا منه قال لك لقد ملأت ساقى بالغبار،أما ترانى مسحتها لألم فيها ؟ وساورك فقتلك ونهب ما عندك ؛ وكان له وجه مــن إفسادك زيت رجله بالغبار .

وإن مررت بعيدا عنه قال لك لم تبتعد عن ناحيتى كأنى مجــذوم. وهبّ فساورك فقتلك ثم نهب ؛ وكان له وجه من إساءتك إليه بابتعادك عنه .

وكان فى القافلة خير كثير . وجاء دنبيل إلى الغلام فقال له :ـــ

ــ ياود الفكى ، عماتك كتلِن الحِفّوف .

أى يابن الشيخ الفقيه إن عماتك يعنى نساءه هو (لأن مكابر جد المكابراب من أولاد عرمان كما عبد العال جد الفكى حمد مــن أولاد عرمان) قد قتلهن الجفاف من الدهن . كأنه يقول له نعلم أن لك ولأبيك حرمة ولكنا لا بد لنا من غارة ونهب . وضربــه الغلام بالمُطْرَق (أى العُصَيّة) وقال له : يامطموس وعــن سبب كهذا كان يبحث دنبيل . فلم يكذب أن اخترط سيفه فقطع به رقبة الغلام . وأشبه أن يكون اخترط سكينه وسكين السودان كالسيف ، إنما هى مغنوَل (١) ، وطعنه .

وكتف المكابراب كبيرهم وجاءوا به الفكى حمــد فقالوا هذا كبيرنا فعل ما فعل وجئنا به لتقتله بابنك الذى قتله . وأمر به

---

(١) المغول : السيف الصغير ، وسكين السودان كالخنجر الرومانى .

الفكى حمد فأدخل داره • ثم أخرجه بعد قليل إليهم ، وقد حُلِقَ شعره ودُهِنَ وجعلت عليه ذريرة • وقال لهم الفكى حمد :

ـ هذا ولدى والذى قتله ولدى فما كنت لأثكل أثنين فى يوم واحد وعن ذلك مندوحة

وكان المكابراب قد جاءوا جلدين على العداوة فرجعوا وقلوبهم ندم مضٌ • وأمنت القافلة منذ ذلك اليوم أمانا كاملا لم تر مثله قبله • فقول بنت الطيب « بركة طيب النية نحن المكابرابية ان شا الله مالنا فيها ذرية » من هذا •

هذا ولايخفى أن قصة دنبيل من الأساطير ونحن نستبعدها لقرابة المكابراب بالفكى حمد ورحمهم الماسة • إلا أن الأساطير تروى على حالتها بلا تغيير كما هو معروف من مذهب الأدباء والعلماء ثم لهذه الأسطورة قيمة عظيمة لدلالتها على العلاقة القوية بين الفكى حمد والمكابراب حتى إنهم لو قد قتلوا ابنه لم يؤثر ذلك عليه ثم هى بعد تدل على عزة المكابراب وسطوتهم وفضلهم وحديث بنت الطيب كأنما هو رد أسطورى على أسطورة دنبيل كما ترى• هذا وقد ركبت بنت الطيب هذه إلى بحر الغزال فأحضرت يتيمه أخيها أبى القاسم • وكن قد خرجن مأتما كبيرا من بحر الغزال متنكرات فى زى الرجال ، حتى إذا جئن أرض العرب البقارة اتسبن • وكانت على رأسهن امرأة تدعى بنت إدريس • فأشعلن الأرض بالبكاء على سليمان وصحبه • وكان ذلك مما مهد لنجاح المهدية ونصرها •

وكان للفكى حمد سبعةعشر ابنا ذكرا وبنتان رقية وحليمةوالى رقية ينتسب أربعة رقية ويقال قتلوا بالكَتُوَينب وقبورهم ظاهرقبالدامر

تزار • والكويب مقرن أتبرا بالنيل وهو غير بعيد جدا من حيث دفنوا وقد يكونون ارتثوا فأحتملوا إلى الدامر فماتوا ثَم • وقد يكونون ماتوا بالكويب أو دونها ثم احتملوا ليدفنوا فى جبانة آبائهم • وكانت رقية بنت الفكى حمد عند الفكى عبد الله ود عيسى ود على اب دامع أخو الميدوب الكبير جد العيسياب وله عقب صالح منهم آل الفكى ود عبد السلام بكنور • واختها حليمة بنت الفكى حمد كانت عند الفكى عبد الوهاب تزوجها بمهر عظيم وهو جد الوهاهيب •

وابناء الفكى حمد هم الطيب والطاهر وقمر الدين والأمين وهؤلاء أشقاء والقرشي والتهامي والمدني وعلى الصادق والأزرق وامهم بنت سوَ ينكِت وأحمد أي جدري (ابو جدري) وشقيقه الأحمر وأمهما أبراسابية • أبوراس جدها الأكبر ابن الحاج عيسى ود قنديل • ومنصور(١) والمكى (٢) ومصطفى وليسوا بأشقاء • والفكى عبد الله النقر وهو أكبرهم وأخوه محمد راجل السفينة ام دير • وقيل سمى محمد راجل السفينة أم دير لأن أباه بعثه فى أمر رقبة أو خصومة (أى ذلك كان الله أعلم به) وركبوا مركبا • وكان صغيرا فتهامس القوم : لو لم يتهاون بنا الفكى حمد مابعث معنا الصبى؟ فقال لهم : لست بصبى فقد شهدت سفينة نوح • نفعنا الله بجاهه • ومات صغيرا •

ومن لا يُعتَبَط يهرم ويسأم   وتسلمه المنون إلى انقطاع

والطيب ود الفكى حمد من عقبه الطيب « راجل العلامه » بتشديد اللام صاحب الراية أيام المهدية •

* * * * *

(١) منصور امه بنت اسد ، عمرابية .   (٢) وام المكى « نية ».

ولو كان جده عبد الرحمن ود الطيب ولد ود أحمد تحت راية شيخ العلامة هذا لكان نجا من رصاص أبى طليح •

ـ عـوك ، روحة ناس ابوى وعبد الرحمن اخوى

هكذا قال جده عبد الله • أى كما هلك أبى وعبد الرحمن أخى

وكان عبد الرحمن شقيقه وكان حافظا • أما هو فقد كان أمياً • وانما كان يحفظ يس ويقرأ بها العدد • وكان أمنع من كليب وأحمى من مجير الظعن

وكانت إليه سدانة صلاة العيدين وكانت تقام تحت سيالة داره ولايجتاز بحماها من أمامها مجتاز وخلف صفوفها قوم آخرون لايصلون يضرحون عنها بالحجارة والدراب يبتغون بذلك عندالله الثواب • وكان بنو ود أحمد فرسان عبادة وأهل سقاية ورفـادة

هـــذا

والطاهـر بن الفكى حمـد له عقـب بنـات • وقمـر الدين أخذ الشاذليه عن أبيه وأخذها عنه ابنه الشيخ محمد المجذوب وأمه من حضور المتمة • ولقى السيد محمد عثمان الختم والسيد أحمد ابن إدريس وجاور بالمدينة تسع سنين وأخذ عن الشيخ الأزرق ابن أحمد أبى جدرى جد الأزارقة بالقضارف،وكان فقيها مقتدراء وأخذعن الشيخ ابراهيم السويدى بالمدينة،أخذ عنه الطريق الشاذلى• واجتهد فى الطريق الشاذلى فألف موالد اتبع فيها نهج البرزنجي ونظم قصائد فى المدح والتوسل • وبين منهجه ومنهج السيد محمد عثمان وأضرابه ، رضى الله عنهم ونفعنا بجاههم اجمعين ، تشابه مشعـر بمباراة أو مجاراة • وفى أسلوب الشيخ محمد المجـذوب حلاوة

وإسماح فى عاميه وفصيحه ومايمزج فيه بينهما • وكان مذهب الشوق والوجدان يغلب عليه • قال رحمه الله :

لقد طال شوقى ياأمينى لطيبة أشخصها طورا وطورا أناظر
تذكرت ياخلّى ليالى مبيتنا بمسجدها والقوم باك وذاكر
تذكرت ترداديأخي بين رَوْضَةٍ وبَيْنَ دِكاكِ الزيت وهي أواخر
وإن لها نوراً إلى العرش ساطعا تشاهده أبصارنا والبصائر

وقال رحمه الله :

أراك حزينا منك فاضت مدامع أمن نسمة هبت أم النور لامع
ومالك مهما ان تذكرت جيرة بشعب بنى سعد جفتك المضاجع

ومن ديوان الشيخ المجذوب تعلم العربية وقرأه وهو أيما صغير وكان يلذه منه إنشاد المربعات العشر

أياذا القبة الخضرا ويا ذا الروضة النضرا
ويا من قبره عطرْ أنل مجذوبكم وصلا
أياذا البضعة الزهرا ويا ذا الحلة الحمرا
ويا من مدحه نقرو بكتب الله مذ نزلا
أيا يس يا طه أيا حم يا حاها
لنا فى حبكم وله فأسقوا ماءكم عللا
مديح المصطفى شغلى وشغل أبى كذا أهلى
ولى فيه نعم أمل إذا ما خافت الفضلا
متى فى طيبة نركع وفى روضاتها نرتع
ويحوينا بها سلع وأحد فوقه نعلا

* * * * *

ولكن أولاد دنقلة كانوا يجتمعون كل ليلة خميس وأحد ويقرأون المولد العثمانى ولا يعطونه فرصة ويترنمون ، والأخرى نونا لأنها نصف دائرة الأكوان ، وعنقه جيد دمية فى صفاء الفضة بَيَضَان

صلوات الله ما هبّت صبا لرسول حلّ فى وادى قبا

قلع الباب وأردى مرحبا

ويا ألله يا ألله

تفله يشفى جميعا يا فـلا

* * * * *

فى لجـة أمسك فلاناً عـن فل

تبقلت من أول التبقـل بين رماحى مالك ونهشل

* * * * *

ولماذا لا أقرأ أنا مولدنا معهم ، أفتتح الإنشاء بحمد من الله العظيم اليه ، معترفا بالعجز قائلا لا أحصى ثناء عليه ، إذ ولتد بعجائب قدرته الباهرة ، إنسانا عين المخلوقات الباطنة والظاهرة ... والآن إذ ذكرنا سيرة المحبوب ، فلنرفـع أكف الاحتياج لمالك خزائـن الغيـوب

صلينـا مشـتاقين لسيد الكونـين

صلينـا مشـتاقين لقـرة العينين

يا ثقيل يا شافع (١)

وذهب التلميذ الرباطابى يوم الجمعة الى السفرة (غرفة السفرة ،

---

(١) اى يا صغير لان الصغير اذا مات شفع لوالديه .

المائدة) فوجد أولاد دنقلا يأكلون فسيخا فولى هربا ــ فندى فندى
اولاد دنقلة يياكلوا لن فى رمَه
يكاد يميل قبل الهاء كما يفعل الكسائى فى رَحْمَة ، بل يكاد
يخترم الميم قبل أن يصل الهاء ويشمها شيئا بين كسر وشد : فى رم

* * * * *

ــ فسيخ يا ولاد الكلب
قالها لما جاءه إشعار الجمرك مع صفيحة فارغة • فتحنا هذه
الصفيحة ووجدنا محتوياتها سمكا منتنا قد فسد بعد التحليل
الدقيق ومرسلة لكم الصفيحة أفيدوا الاستلام جمرك جلالة الملك •
ــ فسيخ يا ولاد الكلب
لقيه فى أستَنرا ميدان التحرير بعد دهر وزوجة شابة أوربية معه
وإذا وذلك لامهاه لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

* * * * *

وكان أول لقائه له بأكسفورد بعد ليلة سافر ثلثها الأخير البارد
ثم دلف إلى حيث ربة المنزل التى كان سينزل عندها فلم يجد ترحيبا
كلا • عنوان خطأ • ربما كنتَ لصا • وعاد أدراجه يستعين بالشرطى
واجتهد بلا جدوى وعاد إلى أريكة خشبية بالمحطة يشاركه فيها آخر،
كلتما همّ بنومة أصطدما
ــ متأسف جدا
ــ متأسف جدا
ولقبل ساعات كان فى الدفء •
ونصف الليل جاء الفراش • ميعاد قطارك •

وآخر عهده بها يوم ينهمر المطر ساخنا فى منتصف الصيف ثم أخلف وعدها مرتين « وما أخلفنا مَوْعدك بِملْكِنا ولكنَّا حملنا أوزارا من زينةِ القومِ فقذفناها »

وماكان أغناه عن ميعاد القطار ومغادرة الدفء إلى مركبة كل أسبوع تقصد قرية بالريف البارد نائية والحديث الباهت عن المطامح الوطنية والاستعمار حديثا ذا مجاملة متكلفة من جانبه وجانب مضيفه أما ربة الدار فكانت أعنى بألا يأكل الزوج وضيفهما أكثر مما ينبغى.

* * * * *

ــ نحن لا نتحدث عن السجون فى منزلنا

وريعت المسكينة الساذجة من جفاف لهجتها . ولقد كان رآها فى أهلها مع الخس والشرائح والشاى، وما كانت هذه النحيلة المتصنعة لتساوى وزن خردلة فى نظر أمها ذات الشكيمة والسطوة .

ــ نحن هنا على الطبيعة. تنزل الصباح وتصنع لنفسك الإفطار.
ونزل وصنع لنفسه ثلاث بيضات فى زمن التموين

ــ مامى مستر .... أكل ثلاث بيضات

كانت تلبس أبدا بنطلونا وتتكلم بفم موصد وتحاسبهم بأجر زائد تضيفه على ثمن الغرف إذا زيروا . ولكل كوب شاى ثمن . وتوقد النار لماء الحمام مرة واحدة كل أسبوع فيتسابق إليه صانعو خزانات المستقبل ومدبرو سياسة إفريقية. وإذا استزيدت يوما آخر توقد فيه للحمام ــ إذ كان ماتسخنه له ذلك اليوم الواحد لا يكفى ــ قالت : فى بلاد التبت يستحمون مرة واحدة فى العام .

وشكا أحدهم البرد الزمهرير • وكانت خرجت لتحتطب • وكان
تجمد الماء قد خرق المواسير أو جعلها تنفجر •
وكان يحمد للقطار الكهربائى المحلى دفئه
دق دق دق دق دق دق

* * * * *

The rainbow comes and goes
And lovely is the rose

وكانت إذ جلست للانترفيو متوردة من لفح الريح كالوردة•وكانت
كأن وجنتيها تأتلقان بوردة مطلولة • وكان لها ثغر انثى • وجعلت
وجهها صارما للأنترفيو • وتخشّنت من صوتها وهى لفّاء •
وقالوا لها ههنا فندق صغير
فقالت أريد لآمن مع الحريم

* * * * *

وكانت قد صففت شعرها تصفيفة جد إلى أعلى ولبست بذلة
مقابلة وقالت سأذهب إلى نوتنجهام للانترفيو
وفيها غابة شيروود وربين هود

* * * * *

وأنا سأكون الأول وكان الثانى على طوله وكبر سنه
فندى فندى أولاد دنقلة •• وشكا أنه يحال بينه وبين قراءة مولده
ومديحة • وجاء ضابط الداخلية التى تؤمن بحرية الأديان

ردّف السلام للنبى الإمام

وانتقد له ضابط الداخلية :

أنام به واستيقظنْ بحبه ويعرفه قلبى ولبى والطرف

ولم لا يكون هذا فعل أمر مؤكد فيه التفات من التكلم إلى الخطاب

* * * * *

ـ عوك روحة ناس ابوى وعبد الرحمن أخوى

وكان السيد الحسن «ابجلابيةنور» نزل فى داره . صار إليه بعد إقامة عند ابن عمته الفكى أحمد ود جلال الدين على الأرجح .

وقد ولد ثى الديوان الذى به نزل السيد الحسن

وقد حمله السيد أحمد بن السيد محمد عثمان بن السيد الحسن رضى الله عنهم . توفى أحمد أفندى والسيد أحمد فى يوم واحد فورد ، تاكسى . لاريب . هل له تندة . العشر والدوم (١)

وهذا كأنه ليلة الخميس ، وهذه حلة الختمية .

* * * * *

ـ توت توت توت

وقف الامريكانى ينظر إلى جناح الطائرة والزيت ـ أو هـو بنزين ـ ينبثق جدولا من ثقب الجناح .

صفّر ليدل على عدم الاكتراث وليطمئن الراكبين . وقد ركبت امرأة خاساوية أو نحو ذلك ذات ثوب فضفاض ، لو خشـيت أن الطائرة ستحترق لملأت الدنيا عجيجا .

وإنما نبهته «تسفاية» بعد أن نبهها «تسفاى» إلى انبثاق زيت الجناح

---

(١) ضربان من الشجر .

« تسفاية » يا حليلا (١)
قط مابنشوف متيلا (٢)
متين نلقاها التّريله
والسفرة معاها عديلة

وهبطت « الداكوتة » فى مطار «تسنى» وليس بمطار ولكن طريق مبين من تراب . كانت جدته تقول «سَهَنَنَىْ» . وفى كسلا الدوم. وهذه جبال ليس أحدها جبلى كسلا . لشد ما يأمل أن يراهما

خليلىَّ هُبّا طالما قدْ رقدتما أجدّ كما لاتقضيان كَراكمأ
ألم تعلما مالى براوند كلها ولابخذاق من صديق سواكما
أصب على قبريكما من مدامة فإن لم تنالاها ترُوِّ ثراكما

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتسب : آلشاعر ، يشير إلى خبر سامة بن لؤى

عَيْنِ بكى لسامةَ بن لؤىّ علِقتْ ساق سامةَ العلاقة
رُبَّ كأسٍ هرقتَ يابن لؤىٍّ حذرَ الموتِ لم تكن مهراقه

قال التيجانى يوسف بشير
قطرات من الندى رقراقه يصفق البشر دونها والطلاقة

والعجز ضعيف غامض . وقال عدى بن ربيعة المهلهل
ما أرجّى فى العيش بعد ندامى جميعا سقوا بكأس حلاق
أى المنية

ضربت صدرها الىّ قالت يا عديّا لقد وقتك الأواقى

(١) كلمة حليل سودانية كانها فى اصلها يا احيلى لها فى او نسبة الى حليل الذى اضاع مفاتيح الكعبة ، والله اعلم .
(٢) متيلا : مثيلهما .

ـ عندنا الكوليرا والطاعون والجدرى ولكن ليس عندنا الحمى الصفراء

ـ لا ، لانعطى البيرة للمسلمين فى ليالى رمضان

ـ وكيف عرفتنا مسلمين

ـ أعرفكم من وجوهكم

« والخيل والحمير والبغال لتركبوها » •

والإبل الضخام والجواميس والمعزى السود والسراويل التى تتموج مثل أزر الهندوس

ـ كلوا

وكلما أحضر الطعام ـ وكان شيخا يحرس المصحة ـ قال كلوا ومد أصبعه إلى اللحم والى الزبد وإلى الخضر

وحضر اللحم

وحضر العجم

والعجم نظر

والعجم لمس

والعجم وضع اليد ولمس

لمس اللحم

والعرب أكل

والعرب « طرش »

والأحرار من شيوخ العربية وأفنديتها قالوا كتاب المستر سكوت طريقته جميلة

أين امرؤ القيس والعذارى إذ مال من تحته الغبيط
له كميتان بنت كرم تزبد والسابح الربيط
استعجم العرب فى الموامى بعدك واستعرب النبيط

« ومكر اولئك هو يبور »

* * * * *

قالت له هلا اتخذت لنفسك فتاة وقد كرهت شكوه البرد،وانكسر الصحن فحز كزازة ذوقها المتنطس : « هذا لم يكن لـه لزوم » وابتسمت بخد ذابل وأسنان ثعبان .

كان أكثر ما يلقاه فى قطار العودة . هل تفهم هذا ؟ قالها ملاطفة بعد طول ما التقيا فى الدروس وقرأ أوراقهما عن بنات شرلمان اللائى كن يعشن فى انحلال شديد . شد ما دهش عندما ناقشه فى ثاءات لا نجلاند وياءات شوسير

« إن سومر سيزون هنّو ن هوت واز ذو سونا » تباسمت إليه الفتاة الفرَعاء وقالت يقولون إنك تتقن غوامض هذا النحو المتوسط وما كانت قد تحدثت إليه من قبل ولا البولندية واضطرب عن أن يجيب ؛ كيف يجيب ؟ هذا لم يكن فى الحسبان ، « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعِل باشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب » كان كاضطرابه إذ قدم الفانوس السحرى فطلِب منه وهو صغير قصير أن يبين أسماء بعض الصور . هذا أذكى تلميذ

عندنا ... وخرج ونظر فلم ير شيئا وذكر القصة التى يدخل فيها الولد جحرا فيجد فانوسا سحريا

ـ دا الجحـر

كسفة ! لقد خيب أمل أستاذه كما خيـب أملها وكان آخـر حديث ...

ـ دق دق دق ددق

ـ الكفر جاتهـم من الصعايد
بطلوس عسـاكره مالن عدايد
كتلوه جابـوا ال كلب اب قنايد (1)
أسد الله البيضرع ـ ينهر فى المجمع ـ كم عوقا فى صراع .
من شوفتـه اتفرزع

* * * * *

وليس كأولاد الماحى حين ينقرون طارهم من مادح ولا كمديـح حاج الماحى من مديح
لم تر عينى مثل يوم دنقله
ـ دحين ضنقل دا ماهو عبد البطلوس .
ـ شبشوبن نهّد جايات على المشهاد
أى شابات ناهدات ، كرر الشين والباء لإظهـار معنى الشـباب
ـ دارة وجوهن على القمر تنزاد

---

(1) أى قـلايد .

ما ضفرن نســعة   وما مَشَّطنْ بيهمّاد
سابلات شعورن   واكفالهــن قعـــاد

هذا فى وصف الحور العين وتطرب له النساء

وقد جاءوا للتسجيل فى الإذاعة فلم يأبه لهم أصحابها إذ قد ذهبت الأصالة فى المديح وغيره

* * * * *

وكان ناظر المدرسة يعرف الشيخ المجذوب ويزوره وإن جهل مولده هؤلاء . هذا وأسقطه لوريمار من الشجرة التى صنعها فى كلمته عن المجاذيب فى مجلة « الســـودان فى وقائع ومدونـــات » Sudan Notes and Records قال إنهم سحرة «آلسحر إن الله سيبطله » ـ وبطل لوريمار وإنما كتب بجهل حرصا منه على أن يكون مفتش مركز قد كتب .

والعجب له كيف غفل عن أظهر بنية بالدامر فلم يهتد ، وهـــو الحاكم ، إلى من يكون صاحبها والناس كلهم تعرفه ولو قد سأل لدلوه .

وسماه ترمنجهام محمد الصغير ؛ خلط أمرين ، ظن أنه محمد أبو صرة ، فخلع عليه لونا من خلافة محمد أبى صره بن أحمـــد أبى جدرى بن الفكى حمد ، وأراد أن يميزه من محمد المجـــذوب الجَد ؛ وكأن من تلقى عنه قال له الصغير والكبير ليميز بينهما . وتوفى بالدامر وبها قبره ، وهدمت قبة قبره فيما هدمه كتشنر من القبب ؛ وقيل كان الشيخ يكره أن يدفن فى قبة

وقد هدمت قبة المهدى بأمدرمان لإضعاف الروح المعنوية كما زعموا • وقد هدمت قبة السيد الحسن من قبل •

وعين توتيل رواء •

* * * * *

ويقول بعضهم أبوكرام فى جبل مكرام • ويسكنه المرعفيب • وأهل الصعيد يقولون « المرفعين » • وأهل كسلا يقولون : «الكراى» • فهل جبل مكرام أصله « أبوكرايم » جمعت « كراى » بالكسرة والميم وهما أختا الياء والنون فى الجمع • يقول العبرانيون كروبيم وصرفيم ولو كانتا عربيتين لكانتا كروبين وصرفين وهما ضربان من الملائكة المقربين الشرفاء •

وتكروف بئر وليست بعين عندها العرب يمتحون

راعه جفافها الكالح بعد خضرة الفدادين واللعب فى العراء «بشَدّنان قَيل » ـ ضرب من الجنادب أو الحناظب الطيّارة ؛ ثخين الجناح، الكبير منه أحمر الجناح ثخينه قويه ؛ إنما هو مادة قرنية صلبة • والضرب الصغير منهأخضر الجناح فيه خطوط صفر • كانوا يقشرون فصوص قصب الذرة الناشفة ويصنعون منها حلقات ، ويقدون هذه الحناطب بالشوك ، يلصقونها به إلى القصب المقشور • ثم يجيئون بأعواد مشتعلة ؛ فيدنونها منها ، فتطير زن زن زن •

وفى أوروبا يفعلون نحو ذلك بالحديـد فيطـير زن زن زن زن ولعله يتألم ولا يشعرون بألمه كماكان هؤلاءلايشعرون بألم الحناظب

ولاتقل إن الحديد جماد لايتألم،ففى الأخبار أن الحجر حين يلقى فى جهنم فيبلغ قاعها ويلذعه حرُّها يصرخ بصوت مسموع • «يأيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة»

عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » صدق الله العظيم •

وبعض النبات يتألم ويبدو عليه • وفى الأمزون فيما يزعم شجر يفترس الناس • وسيدة أمريكية لها أزهار تطعمها الذباب ، تمر عليها كل يوم بصندوق لها فيه زنابير حبائس ، فتلقى من كل كم زهرة زنبورا فينطبق عليه ويمتصه • والسيدة الرقيقة بذلك لاهية ، وتجلس للغداء إلى لحم ثور أضجع وحز ودجاه • يفعل هذا المسلمون • أما اولئك فيضربون رأس الثور بساطور أو يطعنون دماغه بإشفى من الكهرباء •

* * * * *

ــ الله يا سيد

ــ سيد سيودة الله يا سيد

ــ ياب عاشه قودا الله يا سيد

وبيدهم الحبل يجرون المركب عكس التيار • وأبو عائشة ينجدهم بصلاحه الغمر كما قد أنجد أهل تكروف إلى الجبال إلى سواكن نفسها

للنبى سالّينا للنبى سالّينا

للنبى سالّينا الرسول هبّينا

أصل السين صاد « صلينا » ولاتظهر سكون الياء ولكن تميل فتحة اللام

خلى بالك ليّا

لم أمين عليّا (لم فعل أمر من لم بالتشديد)

لينـــا فيـــك أمنيـــة
بلغــــــه الأمنيــه

وأمين هذا تلميذه وسمى به حفيده أمين بن أبى بكر وأمين أبن أبى بكر ، من الهدندوة الأخيار ، هو ابن عائشة بنت الشيخ المجذوب

* * * * *

وكان مجذوب بن أبى بكر مـع الفرقـة التى وصفها تشرشــل حين التقت خيل كتشنر برجال عثمان دقنه ، «خيل اللات بخيل الله» وشهد جديدا مع الخليفة . وبها استشهد رضى الله عنه
وليس للشيخ المجذوب فى سوى عائشة عقب .

* * * * *

ومن أبناء قمر الدين بن الفكى حمد ، الطيب وله الشيخ ود الشيخ الطيب الشاعر ، مدح المهدى بكلمة منها

طـالع السعد قد بـدا والكمـال

وله ديوان قيل عند المكابراب . وإلى وزن قصيدة منه فيما ذكروا نظر الشيخ ود الشيخ الطاهر فى كلمته :

ضوء برق تلالا   فى الدياجى خلالا
نحو نجد توالى   واعتلى واسـتطالا

ولما تصدح بها الأصوات الجهيرات فيما بين الدامر والفريـع .
والشيخ الطاهر المجذوب بن الفكى الطيب بن قمر الدين ، ابن أخى الشيخ المجذوب ، وهو مؤلف المناقب وشيخ عثمان دقنـه وذكره نعوم شقير تلميحا ؛ ونسب اليه هولت غير قليل من قيام

ثورة المهدية بالبحر الأحمر . وعسى أن ثار عثمان وبنو دقنه فآثر الشيخ الطاهر الحفاظ وغادر الدور والقصور بسواكن إلى جهاد يوم عبوس قمطرير بهندوب وأخواتها

أذكرت حيّ سعاد والعمتارا   وطفقت تندب بعدها الآثارا

* * * * *

والأمين بن الفكى حمد له ذرية عامرة ونسب واشج مع سعداب شندي . وكانت حال ابنائه بعده أشبه بحال الملوك. وكان الصديق ابن الأمين صاحب تدبير . غادر الدامر لما يئس من بنى عمومته إذ لم يقبلوا نصحه وصمموا على مصادمة الأتراك .

قال لهم الصديق وقد كان ذهب إلى بربر وعلم أن الملك نصر الدين قد سالم الأتراك : هولاء القوم عندهم السلاح النارى ، فإن كان لديكم سر تمسكون به النار وإلاّ فالمسللة .

وكان فى القوم رجل من المحيسياب فتهكم وقال : « أهذا كلام شبانكم يا أبناء المجذوب ؟ » ... « أها يا ولاد الميدوب ، دَا ترَاهُ كلام صٌبْنيانكم .. »

فأثار حفيظة القوم وضرب النحاس . وكان الخليفة الفكى محمد أب صرة ود الفكى أحمد أب جدرى ود الفكى حمد ود الميدوب وجاء « الأناقيب » على الجمال . « الانقيب » المغنى كأنها من النقيب أو النجيب أو التلقيب أى صاحب التقليب الذى يطلق بشعره على الناس الألقاب . يقولون اسم « انقيب » أى لقب. وهاج له الفكى جلال الدين فيما ذكروا وكان بيده السيف والسبحة مكان الدرقة ، والطيب ولد ود احمد وكان بيده البيرق .

ـ اتـــو اولاد بيرق

* * * * *

وكان الطيب ولد ود أحمد يركب فى بنيه الأربعة فخشى العين فصار يركب مع ولده محمد وحده . وكانت فرسه تدعى « ام دَيَّة » أى ذات الصوت ذى الدوى . وكانت أمه وام أختيه فاطمة بنت ود أحمد وكلثوم بنت ود أحمد ، جباراابية . قالوا وما أغبته المسوح ليلة واحدة حتى أدرك فنشأ قوى البنية . وكان لا أخ ذكرا له . وكان أبوه الفقيه محمد ود أحمد ود الميدوب فريدا لا أخ ولا أخت . وكان رجلا فذا . وكانت أمه فيما ذكروا من المحس ، بنت كذا أغا من دنقلة . وكانت حلة الدناقلة والعبابدة جنوبى بيوتهم . وبها كان نزل بركهاردت . والفكى الكبير الذى رآه هو جلال الدين بدليل أن اسم أبيه عبد الله ، أى عبد الله النقر ، وقص القصة المعروفة : أن امرأة افتقدت عَبُورها فذهبت إليه وشكت واتهمت أحد الناس فجىء به إليه فأنكر هذا فقال الفكى للمرأة ، هل لعبورك اسم تعرف به ؟ فقالت نعم . فقال لها ناديها . فنادتها فصاحت « باع » من بطن الرجل لأنه ذبحها وأكلها . أو كان خائفا جدا — كما قال بركهاردت المنكر الدقيق الملاحظة — فقال « باع » من شدة الخوف.وفى هذا بعض التأويل لما مرَّ بك آنفا من كرامة الشيخ عبد المعروف « ال قلب الزول خروف » الزول الإنسان باللغة العامية وأصله الإنسان الخفيف الظريف كما تقول جنتلمان

قطعته بفتيةٍ أزوال على مهارى رُجّف الإيغال

وأفسده الحكام الإنجليز فقالوا «زاول» بمد الزاى وسكون الواو

يريدون مدلولا كمدلول «نايتف» وقد أفسدوا من قبل «جنتلمان» حتى صارت «جنت» و «جنتس» وتكتب على المرافق العامة ٠ وكان مانهايم يهوديا قصيرا يحاضر عن نظرية « الجنتلمان » ، وأصل ذلك فى الارستقراطية والفروسية ٠ وفيه نظر إلى ارسطوطاليس وكان الفكى الطيب ولد ود أحمد أصر على أن يسمع بكاء بناته له وهو حى ٠ فركبن الخيل وانكسرت القبائل ٠

ورأى حفيدُ ابنَتِه أخرى بناته عجوزا يجاء بها من ناحية القاش بكسلا ٠ وله جأش وهدير واشجار وغثاء وركام ٠ والنساء عند شاطئه يجمعن « الشاف » و « الكليت » و « القنقليس »

وما الفرات إذا جاشت غواربُه ترمى أواذيُّه العِبْرَين بالزبد
يوما بأجود منه سيب نافلةٍ ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وكان ذلك الحفيد على كتف رجل يعبر به القاش خوضا ٠ وبعض الناس على عناقريب (سرر) يحملها رجال يعبرون بهم القاش ونفرت نفسه من ذلك ٠ كأن أهله نفروا من ذلك وتحدثوا فهو يذكر ما كان من من نفورهم ٠ كأن العناقريب جنائز ٠

وأحد العناقريب العنقريب وهو سرير خفيف من خشب منسوج بالحبال من سعف الدوم(١) ويقال للدب الأكبر من نجوم السماء العنقريب ونبئت أن هذا اللفظ عينه عند أهل سقطره ٠ وهم شعب سامى الأصل ٠ (ولا أرتاب أن لغة مروى القديمة من أصل سامى يمنى السنخ وانه أعلم ٠) وخلف العنقريب أخواته

(١) ومن السيور ويقال له عنقريب القد وكان للعرس ٠

يبكين كأنه جنازة ويقال لهن « بنات نِعاش » أى بنات نعش ، قال أبو الطيب :

كأن بنات نعش فى دجاها   خرائد سافرات فى حداد

وفى المثل « بنات نِعاش شيلن نعاش ختتن نعاش فوق النعاش » وهو مما يُحاجى به الأطفال مثل «وقبر حرب بمكان قفر » ٠وأخرى « بنات نعاش » هى الجدى ويقال لها العريجاء كأنها عرجاء تحاول إدراك صويحباتها فلا تستطيع

أرأيت من حملوا على الأعواد   أشهدت كيف خبا ضياء النادى

جبل هوى لو خرَّ فى البحر اغتدى   من وقعه متتابع الإزباد

ـ هاى ياود الميدوب انت بتركب كدى

وكان محمد ود الطيب ولد ود أحمد قد شكا من أن البقارة أخذوا فرسه وأمته وكان صحب المهدى من الغرب

ـ هاى نديك عشر نسوان

ـ مانى منافق يا سيدى خليفة المهدى ٠ داير خادمى وحدها ٠ وغمزه الناس ٠ وكانت نشوة الخليفة لركوبه أكبر من أن يفطن لانفعاله ورَدَّ له ما أخذ منه ، وأسر بالنجومية وعرفه الزبير

ـ الشيخ بكتل بكتل بكتل

أى يقتل يقتل

هذا صوت النحاس ويسمى أيضا « الدنقر » بكسر الدال ٠ لفظ اشتقاقه صوتى الأصل ٠ أونامابتيك ٠ كلمة نادرة فى عجمتها وهى الآن على لسان كل نابت ٠

ـ نادى شيخنا الباذ

ابوى صمد الدنقر الرطان

يا منادى ناد نادى شيخنا اليوم
أبوك يا الحاج جندى جندى القوم يامنادى
ـ أنا المرابط أنا المجاهـــد

* * * * *

وأجمع الفقرا على مصادمة الترك من دون سر يمسك النار ، هذا كان قبل إحراق الملك نمر إسمعيل ابن الباشا بشندى على الأرجح وإلا ما كان الصديق ليأمن حين صار إلى قوز الفونج وماكان ليأمن أيضا الذين بقوا بالدامر من اولاد المجذوب ومن بنى عمـــهم . وقالوا إن ام إسمعيل غضبت حتى لم يرضها إلا ذبح الجعليين بيديهـا وشردوا وبيعوا ونكلوا كل تنكيل . وقد فطن هولت إلى أن فظاعة إنتقام الدفتر دار كانت مما أوغر الصدور على الترك وهولت أدق فهمـــا وأعمـــق نظـــرا فى هذا الموضـــع مـــن كثير غيره ، والراجـــح أن حـــرق اسمعيـــل لـــم يكـــن بتدبـــير مـــن المـــلك نمـــر . وفى مذكـــرات بركهـــاردت مشـــعر بذلك وقالوا إن المنشتح والمساعد وليا تدبير ذلك . ولعل من بطانة إسمعيل وكان مترفا متغطرسا من شاركهما أو يسر لهما الأمر . قالوا طلب اسمعيل جوارى . وجاءت فتاة من بنات الملك نمر لها رحط (أى إزار سيور) فقال اسمعيل « مثل هذى » . ولعل هذا الخبر تقريب وتمثيل لغطرسة إسمعيل

دون عَلَيّان خرط القتـــاد

وأرسل الدفتر دار لكل قبيلة أن تعطى الجعليين ضحوة قتال إذ هم منكسرون فارون مع الملك نمر .

* * * * *

ووبخته أخته فيما ذكروا : أتريد أن تفر كما فر نمر
وغنى « الانقيب » يدعوه إلى الحكمة :

« ياب عَدَ ُو ا في الهوبجي واب نجدة ثى الريف »
ـ مرقو اولاد جعل ال كلهم كنز ام
وين عريس الدنقر الرز ام

* * * * *

ووقف الشبان صفا طويلا واحتزموا وكشفوا أعلى أجسامهم ليأخذوا السوط

ـ ضرب السوط ما هو حار
هى كدى جربوا الشوتال
ـ الله يلعنك ، شوفوا الفتنة دى

* * * * *

وتخوف الملك نمر لقاء قبيلة كانوا أهل نشاب فأبطأ

سار بنا القباع سيراً ملبسا
بين دبيرى ود باها خمسا
سار بنا القباع سيرا نكرا
بين دباها ود بيرى عشرا

وكان الحاج عبد الرحمن ود الفكى أحمد أب جدرى وأخو الخليفة محمد أب صرة على الساقة وكان فارسا :

ـ يا أرباب (قالها يخاطب الملك نمر)
ـ دحين بيمشينا دا بنبّيت شندى

لكأن ود الفكى قد اتهمه بالجبن والفرار . وتذامر القوم وسحقوا

تلك القبيلة حتى صاروا إلى بلد الحبش وجاء أمان محوبك • وما كان الحاج عبد الرحمن الكليب ليكون معهم وليبلى بلاءه العظيم فى معركة الكويب •

ـ انتو ولاد بيرق

وكان بيرق صاحب اللواء فى هذه المعركة • والحاج عبد الرحمن الكليب قائدها وبطلها ، وشهدها الفكى جلال الدين بيمناه سيف وبيسراه سبحة ، «يُسَبِّحُ لله ما فى السموات وما فى الأرض المَلِكِ القُدُّوسِ العزيزِ الحكيم» نعم الترس والحرز الحريز • وشهدها الفكى قمر الدين أبو الشيخ ، من أبناء الفكى حمد وبها قتل واستشهد أربعة رقية كما تقدم • وأعيا الأتراك أن يعبروا الأتبراوى فانحازوا إلى الغرب • وأتبعهم الفقرا فعبروا • نسوا نصيحة الصديق وسر النار • وقتل أبونا محمد ود أحمد ودالميدوب فى « تاقب » حيث التقوا • وأكلت « الجُلّة » مأكلها

ـ سدوا الشرمة ياصبيان
وتساقط بنو عرمان •

وقال ود البقوق الكبير للفكى جلال الدين « نَقَرْنا يا ود نَقَرْنا سمحة الجلسة فى دامرنا »

وكانت المعركة الثالثة بقوز الحلق ولعل هذه كانت بعد حرق ود الباشا وأمر الدفتردار • ومات الخليفة محمد أب صرة رحمة الله عليه بعد هذه المعركة •

---

(١) الجلة : بضم الجيم هى قذيفة المدفع •

وابلغ الشيخ المجذوب وهو بالمدينة مقتل أبيه وأهله فأسى عليهم ودعا على الأتراك

* * * * *

وكان الشيخ حسيب ود الصديق ود الأمين ود الفكى حمد ود الميدوب يدرس الفقه والعربية ويلبس العمامة الخضراء وأخذ المهدى عنه النحو

ـ انتو أشراف ؟ ـ « هكذا سأله الناس لما راوا احتفاء المهدى به وبصحبه »

ـ أشراف .. أشراف .. الشرف شرف العلم

ـ هاى ، المهدى ماعندها (١) شيخ

وسأله أهل الدامر عن المهدى

ـ بحر لا يدرك غـوره

وعن الخليفـة

ـ الموت بين شفتيـه

وكان الخليفة قد اهتم واغتم لما أصر القوم عليه أن يعاهدهم بالأيمان الغلاظ على المصحف فى البنية فوق رأس المهدى فاحتاج الى الفقهاء

ـ هاى احفر ليعلمك لاهنا وادفنا (٢)

والناس بالناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم وأفتـوا لـه

ـ يا سيدى خليفة المهدى احلف وانو الحبر والورق ، قـول وحاة الكتـاب دا

(١) و (٢) هذه لهجة البقارة يقولون عنده بفتح الدال وسكون الهاء وادفنه بفتح النون وسكون الهاء فتبدو وكانها مؤنثة وليست كذلك .

ـ عشرة ئى تربة ولا ريال فى طلبة

وأمر الامين بن أحمد بن الأمين بن الفكى حمد عبيده أن يضربوا النحاس « مهدية مهدية » . واجتمع إليه عبد الله ودسعد وعلى ود سعد وسائر الجعليين

ـ سمعنا وعصينا

واخترط سيفه ليقتحم «النَّقَيْنقَر» فأصابه الرصاص وغفل عنه لوريمار فأسقطه من شجرته وأبَه له هولت . وأبوه وجده بنيا المسجد الذى وصفه بركهاردت وكان يأوى إلى برد ظله من حر القيلولة أيام ألم بالدامر .

ـ بحمد الله أكبر ذو الجلال

نغمة قريبة شيئا ما من نغمة : « أرانى ما ذكرت لك الفراقا » والحاء فيها نفس من الهاء . وله نبرة أعجمية بكسرة لام الروى ومابعدها من إطلاق «الجلالى» وله لحية . وأنشدوا معه لكثرة ما اعتادوا الانشاد

دق دق دق دق دق ددق دق

كان ضابط صف من فرقة هندية مسلمة جىء بها مع جيش الهند لتقاتل من أجل قضية الحلفاء وتنتزع كرن من الطليان وترد هيلا سلاسى على الحبشة

وكانت الفرقة معسكرة بدرو ، وربما زاروا الجزيرة

ـ حرّم ياجماعة « رفيق » تتغدوا معاى . يابت الخروف الأبرق . وكان الهنود المسلمون يقولون فى النداء «رفيق» مكان ياهذا وياصاح . وكان عبد الرحمن الامين رحمه الله يذبح لزمرهم كلما رآها ويذبح لكل زمرة يراها فى جزيرته .

وكان جماعة من الوجهاء قد اكلوا دمعة الكمونية وشربوا الشاى ونهضوا شاكرين وقد شبعوا . فأخبرهم أن الخروف كله مازال على الطاجن يشوى والكمونية إنما هى البطن وأشياء من التوافه . واعتذروا بالشبع

ـ حرّم تنزلو تعوموا

وكانت ملابسهم أوجه من أن يعوموا ؛ فمضوا حتى غابوا عن نظره وأتعبهم السير ثم عادوا فأكلوا الخروف .

ولمصطفى بن الفكى حمد عقب نساء . وللمكى عقب . وغفل لوريمار عن أبناء منصور ومنهم كان الشهيد حاج حمد ود أحمد ودمنصور الذى خلف الأمين بن أحمد فى أمارة الدامر وقتل رميا بالرصاص أول فتوح الحكم الثنائى لولائه المهدية وقالت الناس: « البلد بلدنا وحاج حمد ولدنا » رحمهما الله رحمة واسعة .

وأبناء الفكى أحمد أب جدرى كثير . منهم الأزرق أبو الأزارقة بالقضارف ، ومنهم محمد أب صرة وحفدته بالدامر كالخليفة السهيلى وبكسلا . ومات أخوه الأحمر « بكساب » ولعلما دعاه إلى « كساب » سابق عهد جده الميدوب بسنار .

وللقرشى والمدنى عقب بنات وليس لعلى عقب

وللتهامى والصادق والأزرق عقب صالح

وحمد المأمون صاحب المكتبة التى رآها بركهاردت من أبناء الأمين

وأرسلوا رجلا صيتا بليل يمر بدورهم ويصيح

ـ خلتفوا أحمد أب جدرى

وكان أخوه عبد الله النقر فيما ذكروا أسن منه .

وقيل إنهم قدموا أحمد أب جدرى لسعة صدره وأنه « سيمسك الناس » وقيل كان عيدالله النقر إذا غضب على شيء أثر فيه فى الحال ومن ذلك قيل إن خشبة عتبة الباب أصابت جانب رأسه فنظر إليها مغضبا فاحترق جانبها الذى لامسه.فذلك عليها إلى الآن ظاهر فيما يذكرون .

وحمى له إذ تجووز عمه وخاله أحمد ــ خاله من مشاهى بنت حمد ود على إذ كان أخاها من أمها فاطمة بنت حجر ، وعمه من الفكى حمد إذ هو أخوه من أبيه المجذوب .

ومع أحمد شقيقه عبد الماجد الضريرى

وحفظ على الفكى الحسين ود عبد الماجد ود أحمد حفيد عبدالماجد الضريرى « أب تابوتاً حريرى » خلق كثيرون وقارب التسعين أو أربى عليها وكان لما كان بالدامر الغربى قرأ عليه أبوه ثم صار إلى خلوة (ود الفكى على) حيث تلقى التجويد من (ود راوى) من فقراء الصعيد . وأوقدوا النار وبلغ ذلك الفكى حمد فأرسل قوما فألقوا عليها ترابا فارتفعت فأبلغوه ذلك فقال إن ناره لن تنطفىء

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم وإليه كان حباءُ جَفنَتَه يَنتقل

وإنما قيل للفكى حمد « أبو الست عشر » تبركا

وابناؤه كما ترى سبعة عشر من الذكور وتسعة عشر إن عددنا رقية وحليمة .

ويجوز أن يكون سبب قولهم «أبو الست عشر» انهم أهملوا البنتين وأهملوا محمدا راجل السفينة لصغره

ويقال حينئذ فلم لم يهملوا المقتول وقد كان صغيرا ؟
وهذا يرجح ماقدمنا من أمر التبرك
وسبب التبرك أن الست عشرة فى الأعداد دليل الخصب ، إذ كان النيل يجعلونه شيخا ذا لحية وبطن وحوله ستة عشر طفلا يكنون بها عن ستة عشر ذراعا إذا زاد فيضان النيل عليها أفسد وإن نقص لم يك ريا . ولم يلقب الفكى حمد بالنيل ولكن كأنه لقب بقولهم أبو الست عشر ولكن العركيين بالجزيرة قد لقبوا أحد صالحيهم (حمد النيل)

وحمد اختصار محمد ومحمد معدن البركة عند المسلمين والنيل معدن البركة عند النوبة والعنج والفراعنة الاقدمين

من أى عهدٍ فى القرى تتدفق　　　وبأى كفٍ فى المدائن تغدق

ـ لالوبة يا اللالوبة
يا ال منك باب التوبه
بتى المنور كيسها
بتى الخضر جليسها
بتى الميدوب عريسها

أم لعلها « المحجوب » فقد سمعها بكسلا

* * * * *

ودعاه إلى مطعم وكان قلقا ينتظر تلفونا من اسكتلندا وقال له إنى خاطب أو على طريق خطوبة انتظر تلفونا من فتاتى هناك ، لابد أنها تجربة لكم مخاطبة البنات السافرات المتحررات لأول مرة . من أجل الحسنات (for goodness sake) لاتخجلوا

---

(١) يقلبون الضاد دالا مكسورة .

أن تتحدثوا إليهن ولكن من أجل الحسنات تجنبوا العلاقات العاطفية.
متعبة جدا . أما ترانى أنتظر تلفونا من اسكتلندا

قصيرة جدا صاحبة البنطلون طويلة الشعر قصيرة العنق مستديرة الوجه صغيرته منهدلة الشفة السفلى دقيقتها ذكية النظرات لها نوينات ، متشيطنة غضيرة وثيرة البنطلون جدا . لا عيب . قه قه قه قه . سأمسح صدرك ـ تعرف ، أنا جربته . الفكس دا انفع حاجه بكسر الفاء وأصلها بثلاث نقط VICK دهان للزكام وذكروا ان الزكام يقطع عرق الجذام .

ـ وأحلى من النكبا وأزكى من الكبا

لقد كان المغاربة يجيئون إلى هذا المسجد من الدهر القديم . وقد افتن بعض الناس فى «المحاية» فصارت تكتب بالعسل على الصينى .

... آمين آمين ... تم العدد ألف يس . وختموا الختمة وقال الشيخ الطيب ود عبد الله ود الطيب ولد ود أحمد اللهم نقرأ كتابك ونجوده ونكون فى هذا البؤس

ـ لا ياشيخ الطيب لا ياشيخ الطيب . قول استغفر الله

والتفت الشيخ الطيب إلى زميله البلخى بضم الباء وفتح اللام وقال له

ـ أنت بائس مثلى يا بلخى ، ما أحسن لك تبقى فى جانبى وتعاونى عليه أى ليدعوا الله لماذا لا يغدق علينا الخير كما قد أغدق على الجهلاء

أترانى دُونَ الألى بلغوا الأمـ ـل من شُوقةٍ ومن كُتّاب
نَعَمْ البستهمو نِعَمْ الـ ـظلال الغصونِ منها الرطاب
إذ تلك الغصون تصبح عندى ظالماتٍ فهل لها منها من متاب

* * * * *

وتجادلوا أشد جدال ، عظيمة الانفعال

واول ما قاد المودة بيننا بوادى عقيق يابثين سباب
وقالت لنا قولا فجئنا بمثله لكل كلام يابُثَيْنَ جواب

* * * * *

وما كان ينظر من نافذة القطار إلا لشعور عميق بالوحدة والوحشة ..... مسكين عباس محمود العقاد .. قال بصوت خشن لقد جلدت كتابك بالجلاد الأفرنجى هذا هو...ولم يكتف بنسخة واحدة

وتلك الوجنة الخمرية السكران رائيها
أفى الجنة يا رضوان تفاح يحاكيها
وتلك القامة الهيفاء زانتها زواياها
إذا ما جار ردفاها أقام الجور نهداها

وجدتها وجدتها

وهل لفتاة زوايا ، هذه لفظة خشنة ، من الفكر مباشرة يريد العقاد ليشغلنا بها عن أنه نظر وارتعدت فرائص وجدانه البشرى الذى تضغط عليه كبرياء الفكر ، الفكر الذى يحسب الفن شيئا أكبر من البشرية ... على من جار ردفاها أفى الجنة يارضوان تفاح يحاكيها ، موعدنا الجنة ياتفاح نحن الزاهدون بكبرياء الزهد على هذه الأرض الغبراء

ومسمعة يحار السمع فيها ولم تصممه لا يصمم صداها
مرت أوتارها فشفت وشاقت
ولو يستطيع حاسدها فداها

فما خلت الخدودَ كسبن شوقا لقلبي مثلما كسبت يداها
ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدى فلهم أجهل شجاها

لماذا تردد ابن رشيق فى تقديم أبى تمام على ابن الرومى فى باب الغوص على المعانى . أرأيت كما ههنا خشونة جد فى إعمال حد الفكر . بعض الخشونة كأسنان المنشار ولها صوت ... مسكين العقاد .

وبعضها كحد السيف القاطع الذى عنه المنتأى غير واسع

أعاذلتى ما أخشن الليل مركبا وأخشن منه فى الملمات راكبه

خرجت عائشة بنت طلحة وابو هريرة بالمسجد ، سبحان الله : كأنما خرجت من الجنة

وكان أحد الفقرا درويشا فكلما أخبروه أن فلانة زوجوها قال البنت الصفتها وصفتها فقالوا نعم

ــ الله ! دى البت ال كنا خاتين ايدنا عليها

قالوا ورمت الثريا الجمرات بخاتم وعاتبها رجل صالح فأنشدت لابن أبى ربيعة

من اللاى لم يحججن يبغين حسبة ولكن لِيَقْتُلْنَ البَرِىءَ المُغَفَّلا

فدعا لها ألا يعذبها الله . وكان ينظر إلى الفتاة ذات العينين الرمادينين وكانت محتشمة غاية فى الأدب غاضة طرْفٍ ألوانِ الملابس وزوايا العقاد

ثم اذا هى مدبرة تعدو كأن القميص الكاسى أقمشة تمثال لتبيين الحركة . ومر به ذو لحية فحياه وكان قليلا ما يحيى . وإذا حييتم بتحية . يتعاقبون عليكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ... «بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق

كل شيء وهو بكل شيء عليم • » فرد التحية وردت تحيته ابتسامة التى ثابت واقفة ابتسامة شاكرة له أنه لم يرم نيوبيد بسهم ••وما أعذب عينيها الرماديتين

ولم أفهم معانيها ولكن
مسألة أسهلها صعب
لا الناس تدريها ولا الكتب
حسبك منها لو شـفت حسب
إشــارة دق لهــا القلب
بثنيتــى هــذا هــو الحب
فهمتــه ــ كَلاّ ــ ولا عتب

شر من سهم نيوبيد سهم كيوبيد

والعقاد رحمه الله شاعر•وفى شعره خشونة منشؤها من أسباب عدة أولها التجديد • نظر فى أصناف الشعر الانجليزى فراعتــه وسىء من غرور شوقى فجعل يتحداه بنوع من تقليده لأن شوقيا كان مجددا وكان شوقى يجدد ليضيف إلى العربية من فنون الفرنسية كما آل إسماعيل أرادوا أن يضيفوا إلى بهاء الدولة الإسلامية طابعا أوروبيا: دار الأبيرا والتوسع فى المال والاعمال واكتشاف منابع النيل بأعداء العرب والإسلام والنيل••تجار العاج بأعالى النيل والتبشير بجوبا وصموئيل بيكر وأمين باشا وغــوردون وجيسى ••• وأطاع ف الزبير دعايات لندن وباريس والعنصرية والصليبية جميعا وتغنــى شوقى بخوفو وخفرع بأوزان «وتوالت بشرى الهواتف أن قد»•• وهيهات أن يُقَاس نَفَسُه بنفس البارودى•وقلده العقادوصحبه

يأخذ من الانجليز كما أخذ عن الفرنسيس . وجد العقاد فى النظر إلى الشعراء الميتافيز يقيين أيما جد وإلى غير قليل من سوناتات شكسبير

Shall I wasting in despair
Die because a woman is fair

وقال العقـــاد :

أيذوى الصبا منا لأن منعمـــا   من الناس بسام الثغير غريـــر

الله أكبر . قال أخو مخزوم :

وأعجبها من عيشها ظلّ غُرْفَةٍ   وريّان ملتفُّ الحدائق أخضر

ووال كفاهـــا كل شيءٍ يهمّها   فليست لشيءٍ آخر الليل تسهر

وقال العقـــاد

كأننى تاجر بالشط مرتقِبٌ   مَوجَ الخِضَمّ وفلكى فيه غرقان

انطونيو .. أنا انطونيو وانطونيو أنـــا ..

مالى ، دوقيانى .... تاجر البندقيـــة

So long as men can read and eyes can see
So long live this and this gives life to thee

بقيـــة لك أتلوهـــا وأنشدها   هذى القصائد لى فيهن سلوان

قال جرير :

ستهدم حـــائطى قرمـــاء منى   قوافٍ ما أريـــد بها عتابـــا

دخلن قصور يثرب معلمـــات   ولم يتركن من صـــنعاء بابـــا

وقال حبيب .

خذها ابنة الفكر المهذب فى الدجى   والليل أسود رقعة الجلباب

بكرا تورث فى الحياة وتغتدى   فى السلم وهى كثيرة الأسلوب

ويزيدهـــا مـــرّ الليـــالى جدة   وتقادم الأحقاب حسن شباب

كالخمر المعتقة الدكناء

يعطى بها البشرى الكريم ويحتبى بردائها فى المحفــل المشهود
كالطعنة النجلاء من يد ثائــــر بأخيه أو كالضربة الأخدود
كالدر والمــرجان ألـّف نظمــه بالشذر فى عُنـُق الكعاب الرود

ورفعت يداً عبلة ذات « غويشات » من الذهب الساطع من نافذة القطار المزدحم فى نهار الصيف الحار ذى الوهج والغبار

Shall I compare you to a summer's day

أحبك حب الشمس فهى منيرة وانت مضىء بالجمال منير

والشاهد حب الشمس إذ لايكون إلا فى البلاد الباردة. أما تشبيه الحسن بالشمس فكثير . وقد عبد الساميون الشمس فى الدهر القديم والعبادة فيها الخوف .

وشكسبير فيه تباهٍ على محبوبه بأنه سيخلد شعرُه جمالـَه. والعربى يفخر بجمال شعره فخر زهو ليس فيه عدوان أو تعــال . وإلى شكسبير وإلى الميتافيزيقيين أمثال جون دون ومن عنهم أخذ أو بهم اقتدى ، نظر العقاد .

ونظر أيضا إلى وصف الطبيعة عند وردزورث وأضرابه فأقحمــه كما أقحم ابن الرومى أكثر البقول فى

أجنت لك الوجد أغصــان وكثبــان

وما عمد العقاد إلى تقليد الشعراء الانجليز إلا ليحقق نظريــته فى وثبة البيت وعطف القصيدة وتعاطفها . الانجليز يعرفون القصيدة والعرب لا يعرفون وحدة القصيدة ولكن وحدة البيت . وهذا وهم كبير . والقصيدة وحدة متماسكة .. وقف امرؤ القيس على أطلال الأحباء فجاء السيل فذهب حتى بما وقف عليه .. ولو فطن العقاد إلى هذا ما كان ليضنى نفسه بمقدمات تطول وتفصيل وتحليل

هاتها واذكر حبيب النفس ياخير ثقاتى
ودع التلميح واجهر باسمه دون تقاة
أترى نحرم حتى ذكره فى الخلوات

يا خير ثقاتى ، خبرنا الثقات عن الثقات قالوا : « جمالك والعلم المبرح والمجد »

غير أنى أمتع النفس بحظ الحدقات

هذا مجهود ما تمتعت به الحدقات إذ نظرت فابتهجت هو يريد ليمتع به نفسه ... كأن النفس لا تكتفى بحظ الحدقات وحده .... وماذا يضيرها إن اكتفت به وتمتعت . وهذا ينظر من بعد إلى قول حبيب :

فما خلت الخدود كسبن شوقا   لقلبى مثلما كسبت يداها

ينظر إلى طريقة حبيب فى تشقيق المعانى وتفريعها . إلا أن حبيبا حزن ليس بخشن خشونة منشار ولكن خشونة إصعاد وحز ... ولا يبالى ما يقول حين يقول متى ثبت عنده أنه المعنى .

لقد أطرق الربع المحيلُ لفقدهم   وبينهم إطراقَ ثكلان فاقد
وأبقوا لضيف الحزن منى بعدهم   قرى من جوى سارٍ وطيفٍ معاود

أى الجوى الذى يسرى إلى والطيف الذى يعاودنى فيؤرقنى هذا هو القرى الذى قرونى إياه فأنا ضيف الحزن بعد إذ رحلوا وهذا هو القرى الذى أبقوه لى .

سقته ذعافاً عادةُ الدهر فيهم   وسمُّ الليالى فوق سم الأوساد

الأساود هى الحيات . أى عادة الدهر بأن يرحل أحبابه ، سقته من الحزن سما ذعافا وسم الليالى كسم الحيات أو أشد

به علةٌ صماء للبين لم تصخْ   لبرْءٍ ولم توجِبْ عيادة عائد

أى هو مريض بالفراق مرضا أطرش لا يصيخ إلى البرء فيبرأ ولا أحد يشعر به فيعوده من أجله وهذا أشد حزنا له وألما .

رفى الكلتة الوردية اللون جؤذرٍ من العينِ وردُ اللون ردالمجاسد
رمانى بخلفٍ بعدماعاش حِقبَةً له رَسَفَانٌ فى قيودِ المواعد
غدت مُغتَدَى الغضبى وأوصت خيالها

بهجران نضو العيسِ نضو الخرائد
وقالت نِكاحُ الحبِّ يُفسِدُ شكلَهُ
وكم نكحوا حبّا وليس بفاسد
سآوى بهذا القلبِ من لوعةِ الهوى
إلى ثعبٍ من نطفةِ اليأس بارد

هذا الذى يأوى إلى نطفة باردة من اليأس ليس الحب عنده إلا مادة من مواد الفن يتأملها ويقتبس منها ويصنع صناعته فى ضوئها ويحترق بها آخر الأمر ولما يجاوز الأربعين . « له رسَفَانٌ فى قيود المواعد » ههنا تأملة نفسانية دقيقة . وعدولا يريد أن يفى ويستحى ألا يفى ويُمَنّى نفسه المخرج بالمطال ثم أقدم فأخلف .

« وقالت نكاح الحبِّ يفسد شكله »

صفه فى عينى ولا تعدو به وصف الأضاة

قال أى المرآة ، أى وصفك له كما تصف المرآة الوجه ليس فيه شعور . وما مرآة تصف وجها إلا وصفته بعينى من يراه وشعوره. الفاتنة لاترى وجهها فى المرآة كما يراه المفتون بها . ولقد تكون هى بوجهها أشد فتنة .... ولقد ارتفع ثوبها عن زند مكتنز وكأن مفصل المرفق خيزران . وتحازيز حيث يلتقى الذراع والزند « كمُطَرَّق ، » الذهب أو « سعَفة » الذهب ، هذه الحلى التى

يلبسها العروس عند « الجرتق » (الجرتق زينة تقليدية للعروسين وللمختون والمختونة فيه الكحل والحريرة والذريره والذهب والودع وعظم الحوت) كأنها سبائك ذهب مضفور فوق البشرة الناعمة الضاربة إلى الخضرة الحرة

كأن مكان العقد من فوق نحرها صفا من حَزِينٍ سهَّلتـه الموارد
عضمرة" فيها بقاء" وشدة" ووالٍ لها بنادى النصيحةِ جاهد

أما الآن فعصر الشباب وهي به شديدة الشعور والأسنان مصفوفة صلاب" بوارق بالنقاء يكشفهن سواد اللثالث وهي تفتر بجناحي حمامة. .... توت توت ... تحرك القطار في وهج النهار و «يا أب بشرال ورافتوار » ... كأن بينه وبين العدوة القصوى زجاجة .. قاتل الله أبا تمام

تريا نهاراً مُشمِسا قد شابه نبتُ الرُّبى فكأنَّما هو مقمر

لقد أدق النظر ... كان يفكر في معاني القصيدة كما وجدها، كما أورثها إياه أمرؤ القيس وزهير وجرير وغيلان ، وكما يرى الفن هو وكما يحس وكما يريد أن يقول . نظر إلى العوادة فراقته وجنتاها ولكن يديها بما تصنعان هما اللتان ملكتا عليه لبه وأرتاه الأسرار

فما خلت الخدود كسبن شوقا لقلبي مثلما كسبت يداها

لا بل أرتاه طلب الأسرار وهو الشوق الذي يبغيه المتصوفة

شغلتني بك حتى حسبت أنك أني

أهـ ... له ... ال ... يا الله

ويا اللـ .... ـه يا الله

قيـــوم

يا حسن .... قيــوم
خيول النور . يجن طابور . عليها حبور
سموه الملك . فى كم وكَتَبَك . كم حلّ شبك . حسن النادر .

ياليلى .... محمــد أبويــه
ربط ام غــور فوق المويــه
صيتــك راح للبرنو كرويــه
تورنــا فرود بيسوق ارقويه

يا ليلى نــادى لى الخاتــم
تور كسلا ياب در١٥ عاتــم
الأسرار حاويها وكــاتــم
وخيل الغيب فوق راسها بيلاطم
ــ الله اكبر الله اكبر
ــ دور شيخك أحمد بن النور

وتوالت بشرى الهواتِفِ أنْ قَدْ ولِدَ المُصْطَفَى وتمَّ الهَنَاء
صل يارب ثم سلّم على مــن هو للخلق رحمــة وشــفاء
سيدنا فاستمسك
... ــ بالذى أوحى إليك ... هوى هناك
... أولم نعمركم
.... ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكُمُ النذيرُ فذوقوا فمــا للظالمين من نصــير
... ود الحراســات
..... وقالوا ربّنا بَعِّدْ بين أسفارنا...أأنزل عليه الذكر..

حتى زرتم المقابر ...... خير لكم عند بارئكم ... باجاب ألف بى جيب يا ..... بوجاب واو وألف ...

وقف المستر قريفث يعرض عليهم الفانوس السحرى ..... واندفقت القربة ... وعطش المسافر الذى كان راكبا حمارا

أترى ألبق منه باصطياد المهجات

أترى أملح من خطرته فى الخطرات

كل هذا تكلف ما كان أغنى العقاد عنه لولا فتنته بأن ينظم القصيدة كما تنظم وحدة القصيدة الانجليزية ، كما يكتب موضوع الإنشاء وكان حسبه لو اكتفى بقوله :

ذهبى الشعر ساجى الطرف حلو اللفتات

وحيى لا يحييك بغير البسمات

وهذا بيت القصيد ... ثم يحتمل قوله

جاهل بالحب أشكو . ولا يدرى شكاتى

وما بعد هذا تطويل وصياغة وصوت الفكر الخشن فيه جهير والشعر صوت الضمير ... رأى النابغة بلوية حسناء فى موسم الحج وجاءت تفتنه فزجرها .. اعزبى عن الناقة اينها المرأة .. ستحطمك

— من يشترى أدما . « أى جلودا بصوت رخيم » . ما أفتنها ولكن لا يحل لنا فى هذا المكان لهو او فسوق . — اعزبى — وضربت به الناقة التيه .

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما واحتلت الشرع والأجزاع من إضما

إحدى بلى وماهام الفؤاد بها إلا السفاه وإلا ضلة حلما

حياك ربى فإنا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد عـــزما
قلت لها وهى تسعى تحت لبتها لاتحطمنك إن البيع قـد زرمـا
أى انتهى ... فوتى .. هلا سألت بنى ذبيان ما حسبنى .. مسكين
العقاد وخشونة الكبرياء فى شعره أيضا .

وخشونة التفهيم .. أفهمته كلا ولا عتب .. يقبل العقاد على الدنيا
بكبرياء ويقول لها تعالى أعلمك .

يامن أصون جماله وكـــأنه خصم على تلك المحاسن يحقد
لاشىء أوجع لامرىء من أن يرى حملا يطيب مع الذئاب ويرغد
أخشى عليك من البعيد وأنت لا تخشى من الدانى الذى لايبعد

ولعل « الذى لايبعد » هنا ضعيفة .

وأحوط حسنك بالتمائم والرقى وتظل تنثر عقـدها وتبدد
وهذا بيت القصيد . الله ! .. البنت ال كنا خاتين ايدنا عليها .

وتبيت ريان الجفون من الكرى والنار حولك والدخان الأسود
مسكين العقاد ... صبر جميل والله المستعان على ماتصفون . ثم
يعلو صوت الكبرياء

لم تتبع نصحى وملت مع الهوى جهلا وغرك أن غصنك أملد
والغصن تسقط إذا يميل ثماره ويزل عنـه الزهر إذ يتـأود
منطق وتدريس ونفس من ابن الرومى .
إن كنت تحميك الطراءة والصبا شر التقصف فالتجرد أنكـد
ههنا نفس ابى تمام .

كلا ورب الكعبة . قال ابن الرومى «وأملح من سربالها المتجرد »
أولى بوجهك أن يضيك حسنه من أن يحفك منه غيم أربد

ـ وهنا أبو تمام فى نَـقَـسٍ هجائى .. «كَسِيتْ سبائب لؤمه فتَضَاءلت» ،

هذى يمينى فى يمينك فاعتصم أولا فارسلها فما لك منجد

يوزيدون ... زيوس .. «والشاعر الفذُّ بَيْن الناس رحمن» تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

لو كنت نوحاً لم تفدك سفينتى إن ابن نوح كان فيمن ألحدوا

أبو تمام ورب الكعبة ونظم كنظم المتون . « وجداً كوجد فرزدق بنوار » « صِرّىُّ عزم من أبى سمَّال »

وللطرفات يوم صفين لم يمت خفاتا ولا حزْنا عدىُّ بن حاتم

وقال الفرزدق

وكنت كما قال ابن نوح سأرتقى إلى جَبَلٍ من لُجَّةِ الماءِ عاصم

وكان الفرذدق يعبث . وكذلك كان يعبث جرير :

اذا كشرت إليه يقول بَلنوى بلا حسنٍ كشرتِ ولا جميل

ولا يخفى عليك شرابُ حَدٍ ولا ورهاءُ غائبة الحليل

ترى التيمىُّ يزحف كالقرنبى إلى تَيِمنيَّةٍ كعصا المليل

ـ لا يامحمد أفندى ياخوى ، بنات النسا ما فيهن شينه كل فوله ليها كيال .

وماكان أبو تمام يتعالى على أحد بتدريس ولكن يدعوك الى المشاركة .... كان يعبث بالنسائب كأنه واقف يتفرج على الحبائب وقد صرن رموزا وطلاسم وهو يحلها ويضيف إليها أصنافا جددا

أزرين بالمرد الغطارف بدنا غيدا ألفنهم غطارف غيدا

أحلى الرجال من النساء مواقعا من كان أشبهم بهن خدودا

أمواقف الفتيان تطوى لم تزر وطنا ولم تندب لهن صعيـدا
أذكرننا الملك المضلل فى الهوى والأعشيين وجرولا ولبيـدا

تأمل ٠٠ذوات الخدودوالقدود أذكرن أباتمام أمرأ القيس والأعشيين والحطيئة ولبيد بن ربيعة العامرى

نحن بنـو أم البنين الأربعـة
ونحن خير عامـر بن صعصعـة
المطعمـون الجفنة المدعدعـة
والضاربون الهام تحت الخيضعة
مهلا أبيت اللعن لا تأكل معـه

وبعد أن أكل الفطيرة نظر فإذا الفتى بحذائه الغليظ فوق حيث كان يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر ٠ والرغيف يصنعونه كذلك فى الطوابـين ٠

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص" أسفل السربال معتمل
على ظهره قربة ماء ويداه تعتملان أمامه

على كاهل من ذلول مرحـل
نزول اليمانى ذى العياب المحمل

والعجوة الجيدة فى دكان حسين اليمانى ٠ كل ذلك فى كسلا ٠٠٠ أفندى بضباتتين ٠٠

ــ ندورى شقاوة ٠٠ ندورى تأب

ــ مررو ٠٠٠ مررو ٠٠ ندووري تأب

ــ وانا مين بودينى ٠٠٠ وانا مين بعد-ينى ٠٠ ليكسلا غرب القاش ٠

وجلسوا إلى شاى العصر فى الشقة عنده شرائح الخبز والسردين والبنضورة والخيار والخس — يقرأ فى كتاب المجموعة الوافية .

لتيوس : خس . سلرى : بقدونس . سبنتش ، سبانخ لم يَرَ الخس ولا البقدونس . خس ، الخس بضم الخاء .. المكمامة فى الخس .... المكمامة غرافة يغرف بها العجين من الخمارة (إناء الطين الذى يكون فيه العجين الخمير) والخُشُّ بيت النار من القصب والحطب . والخص بالصاد فى الفصيحة .

كانت تقول له أمه أريد أن احج أريد أن أحج . وتدعو الله أن يدفنها بين الشفيع والبقيع فلما حج بها ومدن اشتاقت الى بناتها ولما أحست الصداع جزعت ألاّ تراهن فقال ابنها وكان مزاحا : « يأمّ هادا الشفيع وهادا البقيع » وكانت جدته قالت له : « عقرباً تسفك » وأصرت على أن ترى الغلام الذى غرق قبل أن يدفن وكانت ابنة عمها حجت مرارا . وكانت فصيحة ذات شكيمه : وحاة الشيخ « وحاة النبى ال مسكت شبكه » ... ورأت حصانا يجر عربة كارو ... « دحين الصافنات ديل بيهينوهن عندكم الهانة دى » . الهانة أى الإهانة ... والتفتت : « دحين ياولدى بتعرف الصافنات ؟ » .. قال حسان لصفية والله مالى بسلبه حاجة يابنة عبد المطلب .

ـ الأهالى يدوسون هذا التمر بأقدامهم يابُنيَّه

وضحكت ووضعت العجوة على الزبد بعد أن أكلت ورقة خس . ودخل الفتى الشيوعى المطعم فى زغرب وبيده سندوتشة (شطيرة فى الشعر فقط) فشرب ماء ووضع من الملاحة الشعبية على السندوتشة ملحا وشطة وفى أجسام الأوربيين الشرقيين صخامة

إذا وجدوا الطعام وروما من أجمل المدن وأسوان كثيرة فيهاصناعات السعف ــ دق دق دق دق ددق ددق دق

ــ البطيخة دى بكم ــ هادى بتعريفة ودى بقرش
ــ ودى بقرش ليشنو ــ دى حمرا ...حمرا وحلوة

وكانت بقارية طويلة تبيع البطيخ بالظعين (تصغير ظعن وتنطق الظاء كالضاد) ولم تكن البطيخة حمراء ولكن لونها كالرمل وفيهاخييط أسمر .. هذه حمراء إذ بطيخ كردفان كله أبيض ... حتى بطيخ كلفورنيا إن زرع هناك صار أبيض

كانت ذات الخد المورد تمشى كالولد بخطا شديدة وذراعين كمشية الجنود وكان زميلها الشاب يمشى مشى القطاةإلى الغدير ويكاديكتحل ويتكلم بغنةويلبس القمصان المزركشة الحرير والسراويلات القصيرة جدا ماثلة أوراكهن صقيلات العراقيب . وهمّ ناظر المدرسة أن يكتب إلى الزميل فلان وإلى الزميلةفلانة «تنبيه هام لوعكستماطريقة مشيكما» كان ذلك أشد ملاءمة لمذاهب التربية وكان ذلك أرسح أقعس وكانت شطبة كالمهرة ثيابها الخشنة السوابغ عليها عبث ، وكأن عجزيها وهى تهرول هرولة شاب جليد ، بطيختان .

أفى الجنة يارضوان تفاح مجانيها ... ومن أسباب خشونته تقليده ابن الرومى وكان لو قلد أبا تمام أشبه به .. ابن الرومى كما قال طه حسين أراد أن يغالب كتاب الرسائل ؛ طريقته فى التفصيل والتعليل كطريقتهم...والعقاد يريد أن يستعلى على العواطف بمذهب فنى ؛ هذا النهج نهج ابى تمام فى جوهره ... أذكرتنا الملك المضلل فى الهوى ، فجئت وقد نضت لنوم ثيابها ، ويلى عليك وويلى منك يارجل ، قالوا لها هذا سيتزوج ابنتك

جار لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مقيسما بين أرماس

« مرية حلت بفيد وجاورت أهل الحجاز » .. أذكرننا الشــعر والأهواء والجنون . أبوتمام قد قدر أن يضبط جماح عاطفتــه ويخضعه للفن ويجعل الفن ناطقا بجماح عاطفته ، لم لاتقول مايفهم ولم لا تفهم ما يقال

ها إن هــذا موقف الجازع أقوى وسؤر الزمن الفاجع

وكان يقرأ هبة الأيام وإلى جانبه أطلس أكسفورد ويلذعه البعوض نصف النهار إذ هذا البيت له باب وطاقات فى أعلاه وقطيع ، جزء خلفه مقتطع منه مظلم له رف توضع عليه الأمتعة . وكان ذلك فى « زمان الهيصة » .. أى أواخر المهدية ..

وجلسوا فى«الدانقة»أى البيت الواسع ووضعوا بنادقهم فىالوسط، ركزوهن بعضهن على بعض فى شكل هرمى ، وأرادوا ليأكلــوا ويستريحوا .... «هاى دحين البيت دا ما فيها زول» واخذ حربته ودخل القطيع وجعل يتحسس بسنان الحربة وجعل الرجل الذى اختبأ يتحرك سابقا مسقط الحربةالتى تتحسس ودنامن باب القطيع وفيه ضوء واندفع كالطلقة (أى الرصاصة) فهو عند شاطىء النهر، فَهَوَ فى النهر . وكان الشاطىء عاليا والبحــر (النيل) عميقــا بعد خطوة . وغطس ثم رفع رأسه ليتنفس .... ــ تف .. صوت طلقة فوق رأسه وغطس ثم رفع رأسه بعد حين ... ــ تف ... صار ذلك لهم تسلية وهو الآن كقمرية أو كدجاجة وادى أو كأرنب وهم يريدون أن يصيبوه وسيصيبونه حتما وكان لايعرف السباحة واقتحم اللج .

شليل وين راح أكله التمساح
شليل وينو أكله الدودو

وكانوا يلعبون بنين وبنات عليهن الودع والرحاطة والتنانير ، معصرات وكواعب وكانوا قوما عرَباً . ولم يكن الفتيان يقفون ينظرون إلى الفتيات بعيونٍ مريباتٍ ولا الفتيات يرمين الجمرات بخاتم من نافذة القطار .

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأصابنا صروف الليالى والجدود العواثر

لم يكن ابن الرومى بمحتجب عن عاطفة ولا بمريد أن يستعلى عليها ، يجزع ويضطرب ويتحامق وينافس ويحسد البحترى ويروم تفصيل معانى أبى تمام بلين بشار

لك مكر أدبٌ فى القوم أخفى من دبيب السقام فى الأعضاء
أو دبيب الملالِ فى مستهامين إلى غايةٍ من البغضاء

فأنى لم أحمدها على جمعه كما حمدتها على حفظه ... إنى حفظته لك من فتنة البناء ومن فتنة الثناء ومن فتنة الرياء ومن أيدى الوكلاء فإنهم الداء العلياء ، كأنما عصرها من خدى أجداد جدى ، كلا ليس ابن الرومى بخشن ، ولكن لين مكشوف العاطفة ، مكشوف القلق ، والحرص ، حبيب إلى النفس ، وهجا البحترى لأن البحترى كان معجبا بنفسه يبصق عن يمين وعن شمال ويقول ألا قولوا أحسنت ، لو امكن تفضيل ابن الرومى على البحترى لفضلناه ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل ، ولا تحسبن أن البحترى عابث مغسول المعانى لا يحتفل للشعر كما ينبغى فقد شهد له المبرد بالتجويد والتبريز ، وذلك من أبى العباس عزيز ، وإنما أكره البحترى على أمثال « لى حبيبٌ قد لجَّ فى الهجر

جدا» إكراها . قال المتوكل « عهاعها عها ــ أريد أن أقيء» وكان مترفا يريد الأسلوب الحديث فنصح الفتح بن خاقان البحترى أن ينظم اللين من الكلام .

خلافة جعفرٍ يسن" وعـدل   وحسن سياسةٍ يَسَعُ الأناما

وكان للغبن إذا نظم الجيد قال قولوا أحسنت وبصق على الذوق السقيم والجهل المقيم . مسكين البحترى كما مسكين ابن الرومى كما مسكين الشعراء

خبير بنولِهذبٍ فلاتك مُلْغِياً   مقالَةَ لِهِنْبِي إذا الطير مَرَّتِ

وصاح الشيخ ذو الصوت الخشن « إصبعى هذا فيه من العاطفة ما لو قسم على الناس لكفاهم أجمعين » .. « أنا صانع الصنم أحطم الاصنام » طفلا يبكى من خوف الذئاب

هل ثَم من جديد   يا ساعى البريـد
لو لم يكن خطابى   فى ذلك الوطـاب
لم تطو كل بـاب   يا ساعـى البريـد

يريد أن يضحك ، ولكن لا يقدر أن يضحك . ضحكه خشن لأن فيه نشيج بكاء ، ... ... بكاء طفل ... ساعى البريد الخشن يلتاع إليه هذا الطفل الساذج البرىء الفطيم عن ثدى أم ذهب إلى عـزاءٍ بعيد

مـاذا التنسيـق   والجمع والتفريق
والقفز والتعويق   يا ساعى البريـد

يا سـمج

... أحبك يا سمج لو تقدر ان تجلب إلىّ بسمة عزاء

كسوتك الصفراء   والخطوة العرجاء
يمشى بها الرجاء   يامحنة الجليد
لا أحسب الساعات   ثى حاضر وآت
إلا على الميقات   ميقاتك الوئيد
فى شرفتى أبتكر   غيرك لا أنتظر
وإن سعى لى القمر   يا ساعى البريد

وناوله الساعى رسائله أو وضعها حيث عوّده أن يَضعها

ياطائفا بالدور   كالقدر المقدور

هذا استطراد محاولة للانصراف عن الموضوع أو الارتفاع فوقه ٠ روح أبى تمام بلفظ ابن الرومى وأدائه ٠ شىء خشن ٠ ما كان أغنى العقاد عنه ٠

كن أبداً مريدى   بالخبر السعيد
وبابتسام العيد   يا ساعى البريد

فرحة طفل أو محاولة فرحة طفل ٠ ما أشد ما كانت عزلة العقاد ووحشته حتى طلب العشير من ساعى البريد الخشن البذلة والمشية والبط والإعراض ، ومن أخبار البريد الرسائل ، الفكر ... الذى هو نطفة اليأس الباردة ... مسكين العقاد ... لم يفطن إلى نفسه فى شعره الأول ولكن جعلت شاعريته تتغلب على حجب الكبرياء والفكر الكثيفة التى كدسها على نفسه ، حين تقدمت به السن واحتاج إلى دفء الوداد القريب

كلما قلت لى الربيع جميل   قلت حقا وزاد عندى جمالا
عجبا لى، بل العجيبة عندى   صور الكون كم يسعن كمالا

خلتنى قد وعيتهن عيانـا وتتبعت من وَعَوْها خيالا
شاعرا عاشقا وقارىء كتب قرأ الكتب دارساً فأطـالا
فإذا نظرة بلحظك تبـدى صورا ماطرقن عنـدى بالا

هنا الاعتراف الذى يكفر الخطايا ولم تكن به وبالشعر حاجة إلى أن يقـول

بعداد الأنوار فى أعين الحب نعد الأكوان والأجيـالا

ولم نعدُّ الاكوان والأجيال إذا وجدنا الحب؟أليس يكفيناذلك...
الشاعر !القارىء الدارس لايقدر على مدى لحظـة من جميـل
و « عاشقاً » كما ترى مقحمة حيث جاء بها ونحو ذلك يغتفر .
والآن إذ ذكرنا سيرة المحبوب ، فلنرفع أكف الاحتياج إلى مالك
خزائـن العيوب..أفى الجنة يارضوان ثواب العبقريات..ما أحب
الكروان .. هل سمعت الكروان ... أى عناء .. مسكين العقاد
جبل هوى لو خر فى البحر اغتدى من وقعـه متتابـع الازباد.
رحمه الله الرحمة الواسعة وأثابه الثواب الجزل . لقد طالما نظر إلى
أبى تمام من زجاج الرومى الكثيف الأصفر ولقد طالما نظر الشعراء
إلى ابى تمام فأعطاهم كما كان يعطى المعارف والقرابات والندماء
ويتخرق فى العطاء

وفى الكلة الوردية اللون جؤذر من العينِورد اللون وردالمجاسد.
(حمرالحلى والمطاياوالجلابيب) (رب معانٍ وصيقل ألباب وأذهان)

« نصف دائرة الأكوان »

ــ نادى أب صوبان ، دفع الله .. دفق الوَبان دفع لله .. قوم ياجربان دفع الله ، عنده القطران دفع الله

ـ الليلة لى السراى (أى السارين جمع سار على فـُعـّال) ..
والقوم بريدن براى

ـ الليلة العديل والزين والليلة العديلة ويا عديلة الله .

ـ الليلة العديل والزين والليلة العديلة تقد"مه وتبراه

كانت أصواتهن منكسرة حزينة وهى أغنية فرح للعرس وللختان.
ولكن كذلك كن يغنين ولا سيما كبارهن . بل كانت هذه أغنيـة
العمات والخالات . وأعجبته الأغنية

ـ سوءنَ العجين والزيت

كان ذلك بكسلا والأطفال يجرون إلى بيوت الجيران ليسرقوا منها
ويخفوا ما سرقوه ويحضر المسروق منه فيفتدى ما سرق بعطيـة
يعطيها « ود الطهور » (المختون) . شىء شبيه بعادات سبرطة...
وضحكن من قوله العجين والزيت وهو يريد العديل والزين

ـ يابا .. دا بقول يوم السوق ، يوم السوق ...

وضحك أبوه وانما كان يقول : التوم التوم (الثوم) يصيح عليه
ليبيعه وكن حزينات الأصوات حين يغنين أغنية الفرح الخفيفة التى
المسـيرة

ـ ياعديلة يابيضا .. ياملايكه سيرى معا .. الليلة شويا بقدرة
الله ... أى شأوا

ـ نحن النيل ال عمّ الوادى .. ترانا جينا اسحفوا لنا غادى
أم العروس جينا ليكى .. جبنا الحرير لينظم الشبيكى (الظـاء
تنطـق ضـاداً)

أم العروس هاكى هاكى .. جبنا الضهب والحجول مكاكى
نحن النيل ال عم الوادى

الليلة لى السراى .. والقوم بريدن براى

تعال نغنى ساعة لمن انتهى .. الله الله الله .. عليه توكلنا

له الفخر والتبجيل والعز والبها .. الله الله الله .. عليه توكلنا

فذاك إمام الكاملين أو لى النهى .. الله الله الله .. عليه توكلنا

الليلة لى السراى والقوم بريدن براى .. الله الله لله عليه توكلنا

دوس البيت يانمر .. نحن ال مابنقدر .. عروسكن شينه .. وليها عوينه ياصبر الصئور .. نحن البنور ... أى يوى يويوى يوى يوى أى يو يا يا يا عديلة يا بيضا ... بأصوات جهيرة سريعة . متحدية من لورى كبير مسرع .. أين الأصوات الحزينة

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

ـ أولادنا قتلوهم اليوم

كان هذا زوج ربة الدار الهند غربى يتحدث عن تيم الملونين بمنشستر كيف غلب أحد الأتيام البيض .. واولئك يلعبون الكريكيت، فى الميدان برجال بيض . فى ثياب بيض . عند مضارب بيض .

حمر الحلى والمطايا والجلابيب

قهوة كردوما فى زحام الشارع مع رفيق درب بهذه البلاد ،ليس الآن وحده ، شاى وخس وشرائح خبز ولحم وفاكهة معلبة وفتاتان

... أما منهما فشبيهة هلالا وأخرى منهما تشبه البدرا

وهم فى فندق السكة الحديد الضخم ذى الأنوار جهم كمالم يعرفوا الجراند هوتيل على شاطىء النيل إلا قليلا .. وسقط إناء فانكسر وبرق البصر « وإذا الصمت اللعين .. يتمطى ويرين .. وإذا الأبواب والأنوار والسقف عيون »

ـ دقدق دقدق .. أفندى لر ... أفندى لر ... أفندى
لر ... أفندى لر

ألست ترى كيف يمضى القطار فينأى مزار ويدنو مزار
وموج من الأرض فيه النبات وأزهاره فضة أو نضار
يَمُرُّ أمامك مرَّ الهواجس فى القلب منهن ماء ونار

دقدق دقدق دقدق

أصحابه الآن فى لندن . وبعد أيام يركبون القطار إلى استراتفورد ليشاهدو مسرح شكسبير .. سوادشديدعلىمبانىالطوبالأحمر ... وغام زجاج النافذة .. نحن الآن فى المحطة ... نهاية المطاف محطة ماذا ...

دق دق
دق دق

ياحسن سوّاق الونِش ماتسوق الجدية وتَمِش
ياحسن ياجبل الحديد دايره شوفة السكة الحديد
السكون فى بُرتّىِ سودان والمرتب نص وقه ضان

الشتيلة ال فوق جدولا .. جيت امد ايدى اتناولا .. الحراريس قالوا لى لا .. انت فقرى وما بتقدرا

ـ الليلة لى السراى والقوم بريدن براى ـ .. اللهْ اللهْ اللهْ .. عليه توكلنا

ـ أحمد المصطفى...يارب صل- على...دقدقدقدقدقدق... توت...توت..توت.. انا النحلة وانت الدبوس ... والثعلب ، فات فات . وثى ديله ، سبع لفات . والجبة ، وقعت فى البير . وصاحبها ، واحد خنزير ..

ـ تشكليله ۰۰۰ هوى يا ليله ۰۰ عمتيه ۰۰۰ هوى ياليله
والمبلس فى الكباية ۰۰ والبنات يجروا ورايا

أيهـــا الطائر أهــلا بمحياك وسهـلا
فقت كل الطير شكلا زانه ذاك الهـديل
أمَّكُنَّ استودعتنى حبها إذ ودَّعتنى
وكتـــابا حمَّلتنى لفظه يشفى العليل
اننى عنـكن غـائب والى الأوطان آئب
ارتجى حسن العواقب من لدن رب جليل

دقدق دقدق دق دق ۰۰۰

كأنما هو من حلٍّ ومرتَحَلٍ موكَّلٌ بفضاء الله يذرعـــــه
إذا الزماع أراه فى الرحيل غِنىً ولو إلى الهند أضحى وهو يزمعه

وأتكأت المضيفة المجنسة على الهولندى أو البريطانى هى تخدمه وقعدت على حرف من كرسيه ونادها الأصيل الأخضر الأدكن الشعر من بلدها باحتقار وغيظ ثائر مزجهما معا أيما مزج ۰۰۰ وتصامتت وصاح وشعر بلذع الإهانة الراكبون۰لم يعد الهولنديون والبريطانيون أهل سيادة ههنا ۰ وهى المجنسه ينبغى أن تعتمد على خئولتها التى كانت محكومة فقد صارت حاكمة الآن وأعطتهـا تصيب المنبوذين فى نظام الطبقات الموروث ۰ وما اتكأت عـلى على الهولندى إلا لتغيظه

اولئك آبائى فجئنى بمثلهـم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

دق دق دق دق دق دق دق دق
افندى لر
افندى لر

ابريل أو مايو ... لعله مايو ... كان ينظر من نافذة الزجاج والقطار مسرع .
لبيك اللهم لبيك

وروضُ الرخام الأحمر الروض عنده
جلستُ وحبي للرسول أكيد

* * * * *

عرّج على جَوْسَ واذكر عندها الوطنا إن الجبال بجوس هجن لى حزنا

* * * * *

عرّج على جَوْسَ واذكر عندها الوطنا
إن الجبال بجوسٍ هجنَ لى حَزَنا
أذكرتنى أركويتا وهى نائية
والنيل يا ليت أن النيل منك دنا
وإن بالدامر الغربى منزلة
كانت لنا وغنينا عندها زمنا
لدى السيالة إذ جمعُ الصلاة بها
صبيحةَ العيدِ والطبلُ الذى رطنا
تبثنتها قد هوتْ من بعد ما سمقتْ
حينا من الدهر لم نذممْ لها فننا
وما أسفتُ على شيءٍ كما أسفتْ
نفوسنا يوم أمسى حينا ظعنا
تخرّموا والمنايا ذات تفرقة
بين الخليط الذى قد طالما قطنا

وقد ذكرتُ بذاك القفرِ والدةً
ريعت غداةَ نعى الناعى لها حسنا
وقد تحدّر من عينى وقد قرأتْ
كتاب منعاه دمع قطرةً سخنا
إذ فارقته قريباً إذ يقول لها
لمّا دعته ذَريني ألعبَنّ هنا
إذ كان يلعبُ حُراً إذ تربّص لِلْ
عصفور إذ خلفه صِلٌ الردى كَمنا
لما أتتْ من ضريح الشيخ فاجأها
برفع كفّيه ناع لم يكنْ فَطِنا
وجدة أبلت البلوى شكيمتها
وكان مرُّ الليالى بالأسى قمنا
قالت ألا فاكشفوا عنه لنبصرَه
والثكل مرٌّ وحمل المثقلاتِ عنا
لمّا رأت جسمه غضاً كما عهدت
والروح فارق من زُرْيابه البدنا
قالت أماتَ غريقاً أم أتيح له
حتفٌ سوى ذاك أم رَيبَ المنون أنى
وقد تجلّدتا للرزءِ وأبتغتا
أجرَ المهيمن والإيمانُ لن يَهِنا
وكانتا برجاءٍ تبصران معَا
وربّ غيرهما لليأس قد ركنا
وزالتا بعد ما بالصّبْر صابرتا
الضراء والعيش بعد الرّقةِ الخشنا

سقاهمـــا الغيــث الا يفنــى وخصـــهما
رضــا المليـك برِزقٍ عنـده حَســـنا (١)
وقــد تجلـــدت حتى خلتنــى حَجَــراً
وقـد صـبرنا وكـان الحـرُ ممتحنـــا
وقـــد تجلـــدت حتى خلتنـــى حجـــرا
حتى إذا جنَ ليـــلى أرسَـــلَ السَّننـا
ورام فى الفصـــل يومـاً عطـف أفئـــدة
عليــه شَيْخٌ جهـير شـدَّما لســـنا
فقـــال هـــذا يتيـــمٌ والداه مَعــاً
ماتـا إلا إنـه حقـاً لقـــد غبِنـــا
إنـى عليـــك حزيـــنٌ يا بنَـــىّ وإن
تَحزَنْ فـرزؤك مـــن أمثـــاله حزِنــا
ولـم يزل هـــكذا يرثـى لـه فمـــرى
دمـــوعه بعـد ما للصـــبر قـــد سَكَنَا
يا حبـــذا غضـب الشـيخ البشـير وقـــد
كنَّا نلــوذ بـــه مـــن دهـــرنـا رُكْنـــا
وكنــت إذ زرتـــه ممـتّـا يجـــاملنى
مثـــل الكبـير الذى مقداره وُزِنـــا
والشـــيخ مـن قبْـلُ عبد الله أودَعنــا
حُبَّـــا لــه ولديــه حُبُّنـــا مكنـــا
يا رحمــة الله صُبّى فـــوق أضرِحـةٍ
فيهــا السكينة قد كانــت لنـــا جُنَنـــا

(١) بضم السين او فتحها ، فالاول فعل ماض والثانى نعت مقطوع فالنصب وجه من وجوهـــه ان شـــاء الله .

وقد عجبت من الدنيا التى أخذت
منا الكثير وما أعطت به ثَمَنا

وإنما هذه الدنيا كغانية
تَزَيّنت ولها طرف الغرور رنا

والصالحون عباد الله إذ رغبوا
عنها إلى الله كانوا معشرا فُطَنا

والكبر أكثره زيف وقد شهدت
عيناك شأن أبيك الطيب الطَّبِنا

وكنت تعهده من بعده ماهجعوا
نشوانَ بالآىِ يتلو ثُمننه الثمنا

وصيتا حافظا ثبتا روايته
للشاطبية عن أشياخه لَقِنا

إذ تخرّق بالأسباع جودها
ولا تكاد تُحِسُ المدَّ والغُنَنَا

وشعره كان عذبا حين ينشده
وكان بالشعر طبّا بارعا لَحِنا (١)

وكم شدا « يلذرا ذات القصور » و
« أيّام لنا سلفت » فيها الأساسَ بنى (٢)

النحوَ والصرفَ والشعر الرصينَ
وأصنافُ الكتاب الذى لم يَدْرِهِ النقرَنا

---

(١) لحنا بكسر الحاء عارفا فصيحا .

(٢) سل يلذرا ذات القصور لشوقى ولو لا يزيد وأيام لنا سلفت لمسلم ابن الوليد : والأساس مفعول به مقدم .

وكان مُرّاً عزيز النفس مبتعداً
عن الدنايا وللفحشاءِ ما أذنا

مواصلا لأولي الأرحام مُدّخرا
عند العشيرة للأيام مؤتمنا

حُلْوَ الفكاهة بساما محبّبةً
إلى النفوس سجايا طبعه مَرِنا

وقد بَكَوْه بأصواتٍ مذكّرةٍ
والثاكلاتُ الأُلى ما إن يَنِين ونى

وشائلين بأيديهم فئوسهمو
مع العِصِيّ وكم أشجى وكم حَزَنا (١)

وقد تذكرت أياما مضين لنا
إذ نحن فى كسلا والعيش قد لَدُنا

وآلَ الأَزْرق إذ كنّا نجاورهم
طابت عشيرتنا فيهم وعِشْرتنا

وكم مدحنا « صلاة الله دائمة »
كنّا قليلا وقِدْماً فى القليل غَنَا (٢)

وكنت تشدو « نسيم البيت » مجتهدا
و « ردّفا » لاترى مثل المديح غِنا (٣)

---

(١) حزن متعد تقال حزننى واحزننى .

(٢) و (٣) هذه مدائح للشيخ المجذوب رضى الله عنه : صلاة الله دائمة على المختار فى الرسل ، و« نسم البيت لاقانا » و (ردف السلام للنبى الامام).

وقـــد تذكّـــرت فـــى تَـكَنرُوف موقفنـــا
إذ يمتـــح البـــدو ذاك المـــوردَ الأجِنـــا (١)

إذ الحمـــارُ الـــذى قـــد كنـــت مُرتَدفـــاً
عليـــه أخنضَرُ شـــهم يجـــذب الرســـنا

وقـــد تذكـــرت لمـــا آب من سَفَرٍ
يُهَنـــدِى إلينـــا وما خاطـــوا لـــه الكفنـــا

وقـــد نظرتُ إليـــه وهـــو محتضـــر
وقـــد شهـــدت وقـــد صَفّوا له اللَّبِنا (٢)

وقـــد وقفـــت عليـــه حيـــن وســـدّه
النقوم التّـــراب وصَـــوْتٌ عنـــده لَحَنـــا

واســـترحمـــوا ريثمـــا تحشـــو أكفّهمـــو
وهِيل هَيْلٌ عـــلى القبـــر الـــذى دُفِنـــا

وهـــادرين بحـــدْرٍ مـــن تلاوتهـــم
وآخـــرين سِراع أحضـــروا النجَبَنا (٣)

وكـــان فى القـــوم منصـــورٌ وكـــان لـــه
خـــلاٌ وكـــان وَسيمـــاً وجهُه رَضِنا (٤)

ذا لحيـــةٍ خالطـــت شيْبـــاً سبائبهـــا
زانت ؛ ولم يســـتدر عثنونُهـــا ، الذّقَنـــا

---

(١) تكروف بئر بناحية كسلا . (٢) اللبن بكسر الباء الطوب الاخضر. (٣) الجبن جمع جبنة بالتحريك وهى اناء البن فى السودان يصنع من الفخار وصنعه اليابانيون من الصينى وقد يصنع من الصفيح وكل ذلك دون الاناء الفخار القديم. والحدر قراءة القرآن السريعة (٤) هو ابن محمد ود احمد ود منصور رحمه الله

وقد أقومُ قبيل الفجرِ أصدحُ
بالقرآنِ أتلو ويعلو صوتِي الدُجَنا

وأسأل الله شؤبوبَ السلامِ على
قبرٍ تضمَّنه يا طيب ما ضَمِنا

وللقواديس أمواهٌ تَدفّقها
والسَندَقيق شجَاه يفعم الأُذْنا (١)

وقد صحبتُ أناساً عند ساقيةٍ
يُقَدّرون لقطع النامةِ الغُصُنا (٢)

وقد رأيتُ بصيراً ذا تَكَلُّفةٍ
يُنحِي القَدوم بحِذقٍ حيثما سَفَنا (٣)

وقد تعلمت من لفظ اصطلاحهم
ذَرْواً كقولهم «التوريق» و « التكنا » (٤)

وكان جدِّى جلال الدين بدّله
مرُّ الحوادث من بعد الشطاط حنى (٥)

---

(١) القواديس جرار الساقية والسندقيق بوتن فتعليل « وزن عروضى لا صرفى » هو تروس حلقتى الساقية وهو من خشب السنط واحده سندقيقة والكلمة مروية او فرعونية او نوبية والله أعلم (٢) النامه هى الجزء المقوف من غصن السنط الذى يصلح منه عمل الحلقات . (٣) القدوم مشددة الدال فى العامية وسفن (باب ضرب) قشر . (٤) التوريق عمود الساقية والتكن حيث يجلس من يسوق بقرها. (٥) الشطاط اعتدال القامة ، قال عوف بن محلم يذكر سنه وهى ثمانون :

وبدلتنى بالشطاط الحنى وكنت كالصعدة تحت السنان

وكـــان ذا رقّة لينـــنَ العريـــكة مــو
دودا وديعــا وســهلا قــطُّ ماحَزُنــا (١)

سـقى ثـــراه حَيَـــا غفـــران خالقـــه
وفى الجنـــان لدى رضـــوانـه عـــدنــا

وحدثتـــك عن الأجـداد إذ ركبـــوا
وأنشـدتك أنـــاةٌ مثلهـــا زَكِنـــا

والنائحـــات عـلى شـيخ أخى طـرب
ركبن يفدينـــه الأفـــراس والحُصُـــنا

بنـــاتُ بـــيرقَ والأيـــام فاجعـــة
وآل بـــيرق ماتـــوا موحـــدا وثنـــى

يا رحمــة الله سُحّـــى فـــوق أضرحـــة
عنـد اليباب نَكِرنـــا بعـــدها الزمنـــا

وحـــدّثوك عـن الشـيخ الذى عهـــدوا
مثـل الهزبـر وقالـــوا قطُّ مـا جَبُنـــا

وعنـد تجبـير كَسْرِ الســـاق ما طرفـت
عينـــاه شيئاً ولا عـــن شأنـه شُئِنـــا

وفـى القضـــارف لمـا راهنـــوه أتـــى
محمـــد بـــذراع الليـــث مرتهنـــا

وكانـت ابنـــته صـــفراء خالصـــة
رأيتهـــا إذ أقامـــت أشهـــراً معنـــا

(١) حزنا بضم الزاى صار حزنا غليظ والحزن بسكون الزاى ضد السهل .

ثم افترقنا وريب الدهر مدٌ لها
من بعدنا من قرانات الردى قَرَنا

من النساء حصانٌ ذات مقربة
جاد السحاب ثراها غيدقا غَدِنا

وقال شيخ بنى صَيْفاً بَنَيْنَ نَقَرٍ
وكان أبلج يرعى الفرض والسننا

ردّ الجموع لدى بحارةٍ عمرٌ
بباعه هكذا كالطود إذ رزنا

أولاك قومى ماقوم كمثلهمُ
والمرء فى الدهر يلقى الغمَّ والغَبَنا

لا يبرحون على أمرٍ توارثه
آباؤهم إذ يهيج الهوج والهَجَنا

تواضعا وإباءً وادخار أُسىً
والجدُّ فى الحرب لما أُنْ بها أُذِنا (1)

هم قاتلوا بسيوف الله مصلتةً
وبالحديد فما كلّوا وإن وهنا

منهم أبو القاسم المرء الذى قتلوا
فلا استكان ولا عن دينه فُتِنا

---

(1) اسى بضم الهمزة جمع اسوة . اذنا مبنى للمجهول : علم .

لقـــد تذكرتهـــم ليـــلا ومنزلتـــى
كـنـتـو فأكـرم بألقـــابٍ لهـــم وكنى

إذ بعـــدهم أرد الجـُـــدّ الظنـــون فمـــا
أروى بــه وأخوض الضحضـح الأسـنا (١)

إذ يصـــبن الكأس عنـــى من أُريـــد لــه
كوب الخطـــود وكتوبـــى عنـــه ما صبِّنـــا

وقـــد تذكرتهـــم كيمـــا ألـــوذ بهـــم
وربّ غـــيرى إلى أوكـــاره وكنـــا

بهـــم توســـلت لمـــا ضـــامنى زمنـــى
حتـــى اغتربت وكنت القـــارح الأرِنـــا (٢)

وقـــد رأيـــت وقـــد هـــوّمـــت مكـــة فى
نومـــى فأولـــت ذاك النـــصر والأمنـــا

وكنـــت أســـأل فيهـــا عـــن منازلنـــا
بالأخشبـــين وأجيـــادٍ وخيـــف مِنـــى (٣)

صـــلى الإلـــه عـــلى الهـــادى النبى كما
هـــدى وجـــازاه عنـــا السرّ والعلنـــا

ولا يـــزال الحيا يهمـــى عـــلى جـــدث
فيـــه الســـراج الذى نجـــلو بـــه الفتنـــا

(١) الجد البئر الظنون التى يظن بها ماء ويكون قليلا او غير موجود بفتح الظاء.
(٢) الارن بفتح الهمزة وكسر الراء : النشيط والارن بالتحريك النشاط .
(٣) الاخشبان : جبلا مكة .

حِيالَهُ عُصَبُ الإيمانِ واقفةٌ
يستمطرون على روضاتِهِ النُّمُنا (١)

وقد تذكرت حين الشيخة اتخذت
ناراً من البرد عُذْرُ النار ما أمِنا

تبادر الوقت تخشى أن تفوتَه
وقد تكون كمهر الحرب إذ صفنا

حجت وزارت وكانت ذات مأثرة
وفكرها سِيَرَ الأخيارِ قد خزنا

وأمها جاوزت عشرين عن مائة
أو فوق ذلك شيئاً أو إليه دنا

كلتاهما فى ضريح الشيخ تبصرها
عند الفِناءِ وهذى الدار دار فَنا

يابوأ الله فى الفردوس روحهما
دار المُقامة لاضَنيماً ولا ضَمَنا (٢)

يا صاحبىَّ أعينانى على خطط
بعد البلاءِ ألاقيها لامُتَحَنا

إن الصبابة قد عاصيت صولتها
وإن قدرت على غير اجتناب جنى (٣)

---

(١) جمع معين . (٢) ضمن : مرض بالتحريك. (٣) ان نافية مثل ما ولك ان تقول وما قدرت وهى كذلك فى البيت التالى .

وإن وجدت معاصاتى لها كسبت

إلا الغرامَ وقد كان الغرام ضنى

أم لا تزال ترى للحسن أودية

مسحورةً ودُنىً من دونهن دُنى

وعين قلبك ما تنظر بها وجدت

مع الأسى من رُؤى الكون الجميل مُنى

إن المليحة لمادارها شطنت

هذا الفؤاد على آثارها شطنا

حتى أرى أركويتا وهى نائية

والنيل والعين من توتيل والقننا

والقاش أحمر جياشا غواربه

وزرت عند الضريح السيد الحسنا

وعصبةٍ عند غرب القاش كادحة

جمهورها بعبور القاش قد مرنا

تراهمو يحملون الناس ضاحية

على الأسرة ينزو بعضهم أرَنا

كما المحاملُ حولَ البيتِ خفّ بها

مطوّفون عليها الطفل واليَمَنا (١)

و « فَنَدْكٍ » عاورت ثنتان ردّته

والعيش من قبلُ فى « مُرْحَاكَةٍ » طحِنا (٢)

---

(١) اليفن الشيخ الكبير الهرم. (٢) الفندك هاون من الخشب والمرحاكة حجر يطحن عليه والعرب تقول رحك يرحك والهاء قد تصير حاء .

حتى ترى نَفَيَانا عنه طار وقد
عجبت عند دقيق منه قد عُجِنا
وعجوة لحسين شيخ ذى يَمَنٍ
والسدر ذو النبق الغض الذى سَمُنا
« والإندرابُ » الذى فى طعمه لزَجٌ
والدوم أحمر فيه الماء مُختَزَنا (١)
وبالفدادين أصنافٌ مزركشة
من الدنانين قد نلهو بها عَنَنا
ندنى لها النار كيما أن تطير وقد
ثطننا لها الشوك بالنفَصيّن قد قرنا
كما تطير بجو ذات أجنحة
من الحديد حَشَوْها النار والدُخَنا
لعلها صرخَتْ من مس جاحمها
وفى لظى يصرخ الصَخر الذى فُتِنا (٢)
وقد سبتكَ فتاة كالنبيذ ثقيلٌ
ردفها مشتهاة لدنةٌ غصنَا
وجاملتك بالحاظ لها ضحكت
وزوّدتك سرور القلب والحزنا
وإن نوناتها لمّا أبهت لها
حكَينَ برقَ خريفٍ رشّح المزْنا

---

(١) الاندراب من شجر كسلا له ثمر حلو مزلزج ولك ان تقول و«القلق» الدوم والقلق بضم القاف وتشديد اللام الدوم ، قبل استوائه .
(٢) فتنا : علب قال تعالى « يوم هم على النار يفتنون ».

من المضيفات إذ ودّعت صاحبنا
وكان قد جاء يستجلى حقيقتنا (١)

وقد نراقب أسرار النفوس وقد
نغضى حياءً وبقيا تلك سيرتنا

وقد نصيب سويداءَ الفؤاد إذا
نبغى من الغضب الداء الذى دفِنا

وقد بلونا ضروب العيش واختلفت
بنا الخطوب ورزنا الحزم والوَهَنا

وقد بكينا فجفّ الدمع حين به
طال البكا فوزنّا الشعر فاتزنا

من البسيط الذى أجزاؤه اتسقت
وضربه وعروض منه قد خَبِنا

نشدوه فى خلوة الوجدان تحسبه
وهو الشهيد على ايماننا دَدَنا (٢)

ونورنا الشعشعانى الذى غمرت
بالفيض أحرفه الأرياف والمدنا

يا حبذا النيل والروضات زاكية
النشورى وطيبة المأوى وذات جنى

---

(١) اى مضيفات الطائرات ولك الوصيفات وما البتنا اجود .
(٢) ددن : لهو .

وحبـــذا جـــارة لـــوادى منـــازلهـــا
عنـــد الخميلة قـــد كانـــت لنـــا ســـكنا
عنـــد الخميـــلة بـــين الدوحتـــين لـــدى
حيث الفـــؤاد الـــذى لم تفـــدهِ رُهنـــا
وحبـــذا مجتـــلى هنـــد بعـــارفـــة
من العوارف يعشـــى ضوءُهـــا المِحَنـــا
وحبـــذا القـــوم إذ آواك ودُهمـــو
حتـــى نســـيت لدى صهبائـــه الإحَنـــا
وحبـــذا ذات إســـفارٍ بـــذى خَفَـــرٍ
كأنهـــا رشأ البيـــت الذى شـــدَنـــا
وحبـــذا منـــزِلا جَـــوْسٍ ورابيـــة
قد هيجت لك هـــذا الشـــجو والشجنـــا (١)
وحبـــذا هـــذه الدنيـــا نفارقهـــا
وقـــد أعَزْنَـــا بهـــا أرواحنـــا المِهَنـــا
نريـــد حُرِّيَّـــةً كبْرى وكيف بهـــا
والفكـــر فى القيـــد والأغـــلال قـــد سجنـــا
إن التى ابتســـمت لى فابتســـمت لهـــا
قـــد غـــوّرت جرحهـــا فى القلب فاندفنا
ثـــم ابتســـمت لهـــا من بعـــد فابتســـمت
وكـــان ذلـــك لهـــوا والغـــرام عنـــى
حـــتى أرى جزلـــة العيـــنين مشرفـــة
الخـــدين فى شـــفتيهـــا الشـــهـــد واللبنا

(١) جوس بنيجيريا مصطاف .

زيتونة أريحيات شمائلها
بمثلها فُتِنَ المستور فافتتنا

من اللواتى إذا ما ظلها وجدت
عَيْنُ الغريب ذَرَاه ذاقت الوسنا

لما بدا الساحل الغربىُّ وَانتسبت
نخيله فنكرنا الخوص والأَهْنا (١)

مغدودفا كدر الأنهار ذا غَمَقٍ
يُهدِي المحيط إليه الصَّخَبَ الدُّكنا (٢)

بكى على النيل صبٌّ لايزال يرى
خَلْفَ الظلال حنان الشاطئين حنا

من كُلِّ حسَّانه طالت تجاورها
صنوانَةٌ ذات قَطْفٍ من يديك دنا (٣)

وهيَّأ الجمر يُذْكيه لقهوته
خِشْفٌ أعيفِرُ لاح اللّيتَ والأذنا (٤)

كالبُسْر سُمْرة نهديها إذا لمست
منك البنانة كفيها فذاك هَنَا

طورا يسوفُ دخان البنّ راقبه
وتارة يسمع الإيقاع إن سُحِنا

(١) الاهنا جمع اهان بكسر الهمزة وهو عرجون النخل ونخيل الزيت والنارجيل كلاها لين السعف كانه عشب وليس بذى خوص كالنخل ولا عراجين كعراجينه.
(٢) مغدودفا : مظلما من الخضرة . غمق ندى وماء كثر . الصخب الدكنا : الامواج
(٣) الصنوانة هى النخلة التى تكون معها اخرى .
(٤) خشف ظبى اعيفر ترابى اللون فيه سمرة وبياض ، الليت جانب العنق ومنصوبة على شبه المفعولية كانك قلت لاح ليتا .

يا حبذا وجه أعرابية ألِفَت
حديثها النفس ما إن ودّها أبِنا

إذ الدُّويم « عرَ شنكَول » الجمال به
نرنو إلى الروح لا نبغي به البدنا

وقد تذكرت أياماً بلندرة
وقد تكون لنا أيامها وطنا

إذ الشباب طريفٌ والهوى أُنُفٌ
والحبُّ مستطرفٌ والعيش ما غَضُنا

وأتحفتك بحَلْواها مُدَلَّهة
كأنها ذات طوقٍ تبتغي فننا

يأيها البارق الساري بتزجيةٍ
يعلو الستار ويعلو صَوْبه قَطَنا (١)

إن امرأ القيس لما عينه نظرت
إليك بالشام أبدى شَيمه اليمنا (٢)

لما بدا الأل من حوران مرتفعاً
وأنس البال فقد الأل فاحتزنا (٣)

---

(١) هنا اشارة الى بيت امرئ القيس على قطن بالشيم ايمن صوبه وقطن والستار موضعان ذكرهما .

(٢) لانه فى الرائية وصف الشقر وهو بالشام وراى يثرب وهو بالرملات وهلمجرا.

(٣) اشارة الى قوله ولما بدا حوران والآل دونه .

لا أمُّ عمرو قريب من مضاربنا

ولا الربابُ إليها طَرْفنا شَفَنَا (١)

ولا أظن خطوب الدهر تتركنا

حتى نجوز إليها السبعة العُنُنا (٢)

وقد رأيت أصيلاً فوق طائرة

تعلو السحاب وجُنْحَ الليل إذ دَجَنا

كلون سُنَّة إثيوبية نَزَحت

ما إن تؤمُّ بها الخرطوم أو عدنا

والسحب مثل ركام الثلج أكثِبَةٌ

نُضدن أو أشبهت أثباجُه القُطُنا

أم هل تذكرت جيرانا بذى سَلَمٍ

يُدمِنُون على صحرائه الدِّمنا

ونشوةً من كئوس الراح شاكرةً

على محيا الأديب الكهل أذ أمِنا

وحضرةً قد جلوناها منيلتنا

وَصْلَ السعادة بالسِّر الذى زكنا

حتى نرى ذَهَباً نَضْراً ولؤلؤةً

لا تُستَبَاح وشَعْراً بالشذى دَهِنا

وأفرحتك التى حيَّت بحاسرةٍ

مشبوبةٍ فى فؤادِ الصب ذات سنا

---

(١) شفن نظر وذكر ام عمرو فى الرائية والرباب فى ميميته .
(٢) العنن بضمتين جمع عنن والعنان، والعنان ناحية السماء .

وأرعشت كبد المشتاقِ لوعتها
نبيلةَ الأسْرِ ريّا تعشق الحسنا

وإن لمع ضياءٍ من ذؤابتها
لما بَثَثْتَ إليه الشكوَ قد أذِنا

والله إنّ سعيدا من رآك بلى
إن السعيد الذى ما ريع أو غبِنا

إن السعيد الذى ناجاك مغتبطا
يجنى جناك وودّ الغانيات غِنى

صافحتها بيد ترجو مودتها
وصافحت كعناقٍ ضَمّ واحتضنا

وأفعم القلب حُبّيها وخلت لدى
لقائها أن دمع العين قد هتنا

* * * * *

ددق دق ددق دق ددق دق

* * * * *

وروض الرخام الأحمر الروض عنده
جلَسْتُ وحُبّى للرسول أكيدُ

تعشقت فيه قبل أن أعرف الهوى
وقد أورثتنى سرّ ذاك جدودُ

فلا تسألى عنى سلى عن خليقتى
فإنى ألباب الرجال أفيدُ

وادى النيل البعيد

ألا إنّ وادى النيـــلِ منك بَعِيــدُ
فهــل أنتَ لمـا أنْ نأيت سعيـــد
تذكّرتـه لمـــا صرمت حبـــاله
وهــل يَصرمنّ الحبـــلَ منك عميد
فياليتَ شِعرى هل لَميس كعهــدها
ولــم تتبـــدّل مــن لَمِيس عهـــود
وما هى إلا غـــادة قـــد ألفتهـــا
لـــدى النيـــل بين الدوحتين تميـــد
هنـــالك أوطـــانى وبدّلت غيرهـــا
ألا إن أوطـــان الرجـــال قيـــود
وكيف الـــذّ الرّيف والرّفـــه والغنى
وهنّ لفقـــدان العشيرة بيـــد
ولـــكنّ دارَ الفــكر دارى وإنّهـــا
لنـــائية" إنّ البليـــد سعيـــد
سَعَيْت اليهـــا سَعى جـــدٌ وربّنى
أب" كـــان روضـــاتِ العلـوم يـرود
وناهض مـــرّ اليتـــم فيهـــا وهاضـــه
وَفـــاةُ أخيـــهِ الفذّ فهو فـــريد
وغـــالب فيهـــا غَيْظَ كـــلّ منافس
وحقّت به وهـــو الصغير حقـــود
وقـــال له المرء الذى كـــان ناظـــراً
نجحت ولـــكن لا أراك تفيـــد

ومن قبنــــلُ وصىَّ أنه غير نافــــع
وذلك مــن دون النَّجــاح وصيــــد (١)

ولكـــنَّ دار الفكـــر كانــت بعيــدةً
ومــا فَتِئَت ان النَّفيس بعيــــــد

عـــرفت اليهــا لنــدنا ثمَّ بعــدها
دَنَت لى مــن آفــاق مصر رُيُود (٢)

وقــد زرت باريســاً اليها ووادى الـ
لثوار وحيث الجانبــان جليــــد

وتونس والحمـــــراءَ أرضَ مــراكش
وشــــاهدنى فى كــربلاء شهيـــد

وفى عَــــدَنٍ دار الأديب ابــن غانم
وحَيْث وراءَ البحــر عاش هنــود

ركبت اليهـــــا زورقــــاً وسباحــة
وعطـــلة صيف والطـــريق كئــود

وسِرت لهـــا فى العيــد بين أحبتى
بَدَامـــر لو كان الزمـــان يعــود

وخـــاصمنى فيهـــا ويعـــلم أنّنى
أحقُّ بهــــا ذو غيرة وحســـــود

وخـــاصمتهم فيهـــا ويا ربَّ خطــة
يُضيّعهـــا ذو الحـــزم وهنىَ سديد

وهــــل باعنى للنَّـــاس علمى غاليــا
ألا إنَّ بيعى غاليـــــا لزهيــــد

---

(١) الوصيـــد الباب .
(٢) ريود جمع ريد بفتح فسكون وهو ما نتا من الجبل من انف ونحوه .

وهل يَبذُل المرءُ الحصيف عَناده
لشيء وريبُ الحادثات عتيد
وقد زُرتُ بَيتَ الله واخترتُ خيرتي
بيثربَ إني للرسول ودود
وقد طُفت بالبَيتِ العتيق ولامَسَت
يَدِي ركنه حين الزحام شديد
ورَوَّيت نفسي من سُلافَة زَمزم
وعجّت لدى ضيق المقام وفود (١)
ورَوضَ الرُّخام الاحمرِ الروض عنده
جلَستُ وحبّي للرسول أكيد
« تعشقت فيه قبل أن أعرِفَ الهوى »
وقد أورثتني سرَّ ذاك جدود
وحاربت بَغضاء الجُفاةِ ولم أزل
على صَدَمات الصادمين أزيد
وكان يَراهُ الآجنبيُّ قريعه
فسمَّاه مَغرورا وذاك جحود
كذلك كَيدُ الأجنبيّين واقتدت
إماءٌ على آثارِهم وعبيد
وما بَكَت الأيَّامُ فقدى موّدةً
ولكنها كَيدَ العدّو تكيد
وعند الاله الغَيبُ أجمع ربَّما
بَكَتُ عليها وهى بعد فقيد

(١) وهو مقام ابراهيم عليه السلام .

أما علمت أنّ الزمان الذى نأى
بنا علّه يدنو وأن سنسود

ألا إنّ دارَ الفكر وهى منيعة
حماى وحدّى للعداة حديد

وقد لمَعَت فى الفجر منها لوامعٌ
وبادت وما الجهد الأصيل يبيد

فلا تسألى عنّى سَلى عن خليقتى
فإنىَ ألبابَ الرجال أُفيد (١)

ألا بلّغا عنى المليحة أننى
أحِنُّ اليها والمزار بعيد

وقد تَعلَمُ الحبَّ الذى هو فى الحشى
دخيلٌ وفى العينين منه شهيد

وأعجَبُهُ منها تطلُّعُ جيدها
إليه أدارَ الآخرين تريد

فقلت لها كلاّ ولكنّ جانباً
اذا رامه منكَ النّضالُ عنيد (٢)

وقد ودّعتنى لَيلةَ الدار عُصبَةٌ
كِرامٌ وقومى الطيّبون شهود

وقد أجفلت لمّا أردنا وَدَاعها
لَمِيسُ ومنها جَفوةٌ وصدود

وعاشرتها الدّهر الطويل وانها
على طُولِ ما عاشرتها لكنود

(١) الباب مفعول به مقدم .
(٢) الكاف للمخاطب التفات .

تمــادت لعمرى في الـدّلالِ وطالمـا
همـمنـا بهـا والكبرياءُ حـدود
وقـد زودتنا ساعـةَ البين قبْـلةً
فتـاة طريفٌ ودُّها وتليـد
وقد ذكرتـا عهـد أيّام لنـدن
فتقنـا لها والذكرياتُ عهـود
وسرّكفيزُدياكِ آدم منظرُ الجبالِ وفى دوْرا رواقِصُ غيد(١)
تلوّين حتى خلتهنّ تمـازجت
مع المـوْج في أكفالهن نهـود
وقفـن معـاً في الصفّ خمساً وأربعا
ومالت عـلى أكتافهن خـدود
تراهنّ مثل الخيزُران الـذى ارتمت
به فى الخطـا والساعدين قـدود
ويرنون من لهـو الحـديث بأعيُن
كأنّ نـدى أحـداقهنّ نشيـد
وهيهـات منك النيلُ اذ هو مُزْبد
واذ هـو من برد الشتـاء بـرود
وهيهـات تيّـار بواديه جـارف
وآخـر يغشى حجْـرتيه وئيـد
واذ معنـا الكعّاك وهو مهـذّب
لبيـبٌ وبعض الوافـدين بليـد
وأدرك لمّـا أن رأى ريفَ أرضنـا
أصالتنـا إنّ اللبيب صيـود

(١) دورا بنيجيريا مدينة اصل الهوسا .والزودياك المشار اليه سيارة وآدم سائقها.

ويمدحنا طورا ويمدح قومه
بلا سرف ان الغبيَّ يئود

وروَّعنا اذ لاح أسوَدُ زاحِفٌ
له غَبَرات فى التّناضب سود [1]

واذ منزلا أسماء خَفَض ونعمة
واذ هى تُبْدى فَنَّها وتعيد

واذ يدك السمحاءُ بالبِرّ سَمْحة
لمن يعترى إن الكريم يجود

وإنَّك سمٌ للعدوِّ فلا تَخَفْ
أفاعِيَهم واصبر وأنت جليد

وقد يَعْلَمُ الاقوام أنَّك صُنتهم
وأن خانهم من قيل كان يذود

ولو أنَّ قوماً أنصفوك حمدتَهم
وأنت وإنْ لم يُنصِفوك حميد

ألا ان دار الفكر وهى سَعيدةٌ
لدارى وإنى عندها لسعيد

ألا إنها سَعْىٌ وجِدٌ وغربة
وتَجرِبَةٌ عنها الرِّجال تحيد

(١) هو ثعبان اسود . التناضب جمع تنضبة وهى ضرب من الشجر ذى الشوك.

ألا إنها زادِى وآدِى وعُدّتى
وعادى وأعدائى هناك حصيد

كما دُمّرت بالرّيح عادٌ وغودرت
بطاغيةٍ فى الهالكين ثمود

ألا أيها النيل السعيد تَحيّةٌ
ذكرناك فاعلم إنّ ذاك ورود

كما وردتك الزائراتك بالحِمى
وماؤُك مَيْمُون ووِردُك عيد

ألا إنّ وادى النيل منك بعيد
وشوقك لا يَبْلَى وأنت عميد

فمن مبلغ عنّى التحيّة مَعْشرًا
ودادى فِيهم ثابِتٌ ويزيد (٣)

* * * * *

(٢) اى ذكرناك فاعلم ذكرنا اياك انه كورود منك فان مكسورة الهمزة وان شئت فتحت.
(٣) اشارة الى قول جميل « قالت ثابت ويزيد » .

النيل الطامح

أتذكر حين النيل أحمر طامح
وكم لك عند النيل بينع مرابح
وما دام منى أرض تكرور وافد
إليها ولكن طرحنك المطارح (١)
أتذكر إذ دار الغريبة رحبة
واذ فضلها جم واذ أنت قارح
واذ حولك الطلاب والفتية الأُلى
غنيت بهم غاد إليك ورائح
وكم لك عند النيل من ذى مودة
وآخر ذو قربى لقربك فارح
وكم لك عند النيل من ذى تحية
وذى حاجة يرجو وكم لك مادح
وكم لك فى مصر أديب وعالم
وكم لك فى الخرطوم خل وناصح
وقد هبت الريح الشمال فهيجت
فؤادك إن البين للقلب جارح
وأنكرت هذا الهبو لما رأيته
وشاقك بالنيل الشراع المجالح (٢)

(١) ارض تكرور هى ما بين بلاد برنو وسنغال .
(٢) المراد هنا المائل يجاذب الريح وتجاذبه وفيه اسراع وتزيد.

وإخلاصُ بيضاءِ الذراعين جَذْبَها

قُوَى الحَبْلِ اذ جنب الشراعين جانح

وتبسم لما أوجَس القلبُ خِيفةً

ووتغضى وماء النيل للشربِ صالح

وقد بلّ لَطْمُ المَوجِ ثوبي وثوبَها

وراع وعَصْفُ الريح بالبرد لافح

وأرنو إليها وهيَ تجذب حَبْلَها

ومسقط لَوْح النّصف بالماء ناضح (1)

وان لقاءاتِ القلوبِ خفيّةٌ

مداخلها والتجربات مفاتح

لأم ترني باينت أسماءَ كارها

وذلك رُزْءٌ بين أسماء فادح

وقد كتبتْ تبغى لنا أن نَزُورَها

لميسُ وقالت إنها ستبارح

وآثرت تأخيرَ الجوابِ تَقِيّةً

وعندي لها بَعْدُ الهوى والنصائح

وقد زعموا أني كَنَيْتُ بِذِكْرِها

وهيهات لا أكنِي ولكن أصارح

وقد وَدَعوني لَيْلَةَ الدار عُصْبَةً

وودعهم مِنّي مُبِين مناصح

ولمّا أتاح الله لي طائر النوى

تفاءلت علّ الخير لي فيه تائح (2)

---

(1) هذا يكون في نصف كل قارب ويتم به توازنه ويسميه النوتيون (السقاطة) بتشديد القاف وبالانجليزية (سنتر بورد) .

(2) تائح : اى يتهيا ويتيحه الله من تاح (للالى).

ولازلت جارَ البَيْنِ من أول الصِّبـا
وحسـبى دارا طِينِى المتنـاوحَ (١)

إذ الجرْفُ ذو غابـاتٍ سَنطٍ غزيـرةٍ
وطَلْحٍ وإذْ ظِلُّ السَّيـالة فاسـح

واذ تجتنـى الصَّـمغَ الجنّى وترتقى
الى القرْظِ الفرْعَ القَصِىَّ الكوادحِ(٢)

وقـد زال عنـك الآل والحـال والغنى
وطاحت بجيران الزمـان الطوائـح

وأبصـرت فى حـرِّ الهجـيرة قاربـاً
على الضفّـة الأخرى وماثم نابـح (٣)

طريـح لقى لاحِسَّ للنـاس عنـده
وقـد حفّه آل النهـار الضحاضـح (٤)

وقد خلت الدنيـا وقـد ران صمتهـا
وخيّمتْ لفقدان الأنيس التماسحْ (٥)

وأذكـر لما أن صحوت فلـم أجِـد
سوى برْدِ مسِّ المـاء والبحر طامـح

وقـد طاح فيه النؤْىُ وارتـاع قلبـه
لأن نام حتّى حوله الصبح صـابح (٦)

كأنـك لـم ترفعـه أمس مثابِـرا
وللنّيـل مـدٌّ مشرئب مكـاوح (٧)

---

(١) المتناوح : المتقابل ، شرقيه بإزاء غربيه
(٢) جمع كادحة والقرظ ثمر السنط .
(٣) وما ثم نابح : وما هنـاك احـد .
(٤) وقد حفه السراب كأنه ماء ضحل متصل بماء النيل .
(٥) لفقدان الناس . التماسح : التماسيح .
(٦) النؤى ما يردم ليكون حاجزا للبيت دون الماء من مطر او نحوه .
(٧) مكاوح : مقحم ممتلىء يهم باجتياز الردم .

وقـد عَفَشَ بالعالى مـن الأرض كـُلـّـه
بـِذى حبب إزبـاده فيـه ماصـح (١)
وقد ملأ الـيمُّ الفجـاجَ ولم يَـكـُـن
لـيكـبحـه دون العَزَازة كابـح (٢)
وقد غـِرقت فيه الجـذوع جميعهـُـا
وقد غاب سـُنطُ الخنور الآ سـرائـحُ (٣)
وأبصـرت فى المـاء الفناجينَ عـُومـا
وبـَعـْضُ أثـاث البيت طافٍ وكاسـح
وأقبـل يـُزجـى رَيـّسُ البر مـَرْكـباً
بـَحـيثُ مكانُ المـاء أمس أباطـح (٤)
وقد حـُزّم البيـت القديـم فلـم يـَقـَعْ
وكم جاح من بيت جديـد جوائـح
تـَسـرّبنَ تحـت الأرض حتى قـَعـَرْنـَهُ
وصاحبـُه بالنـّوْى سـاح وكاتـح (٥)
وقيل أساس الطـّوب فى البيـت صـانه
فلـم يـَهـْو اذ نـَزّ الدّميرة ناضـح (٦)
وما هـو الا لـُطـْف ربـّك إنـه
لطيف وعَن ضـعف الضـعيف مسـامح

---

(١) بذى حبب : بماء ذى فقاقيع لفيضان النيل . ماصح : ذاهب — فقاقيعه تغيب فى مده المتسع .
(٢) العزازة : الخلاء .
(٣) سرائح بدل من سنط لان غاب فيهـا معنى النفى . او نقول : لا بمعنى غير والاول اجـود .
(٥) مركب بضم الميم هكذا ننطقها وفتح الكاف اى السفينـة كانها اسم مفعول من اركب لان الريس يجعل الناس يركبونها .
(٥) ساح اى يسحو الارض بالمسحاة اى الطورية وكاتح يكتح التراب .
(٦) الدميرة : الفيضـان .

أتَصبرِ أم للبين دمعك سافح
وكم لك من مَتنٍ له البَين شارح
والتفَيتَ هذا العَيشَ مافيه لذّة
سوى أن طحا قلبٌ الى الحبّ طائح
وإن غنى فكر اللبيب مناحة
يَنوح بها إنّ الحياة منائح
على ما مضى إذ ليس فى العَيشِ لذّة
سوى مامضى والباقياتُ الصّوالح
لدى الله هنّ الذّخر والذُّخر كلّه
إلى المَوت إنّ المَوت للنّاس ناصح

* * * * *

وفلجاءِ تَغر ذات بشر وصحة
لها كفَل من تقلِهِ الطّرفُ رازح
نَظرتُ إليها مَرّة وكأنّها
من الأُدمِ ريم سِربُ واديه سارح
وراقصَها والليل نَشوانُ والخُطا
تَداني وأطراف الثِياب تَماسح
ألا لَيت شعرى عن أوربا وثَلجها
وقد لبست منه المُروج الأفائح
وقد خامر الكَونَ الرّبيعُ ورَفرَفتَ به
فى كآباتِ النّفوسِ المَفارح
وفَوقَ الشجَيرات الشُطوءُ التى بَدَت
وذابَ من الثّلج الذُرى والجَوانح (١)

(١) الشطوء جمع شطء وهو اول ما يخرج من النبات .

تَسَمَّعُ إذ تَهْوِى مواقعُ قَطْـرِه
وتُبْصِرُها فى الضَّوْءِ وهى لوائـح

وقد دبَّ فى الجِسْمِ الحَرارةُ والهـوى
وحُبِّ إلى النَّفس الصِّبا والتَّصابُـح

وعند الرُّبَى قد أشرف الخَمَلُ الذى
عليه ضِيـاءُ الشَّمْسِ والطير صادح

ومدَّتْ اليك الكأسَ من خمر وصلهـا
فَتَـاةٌ لهـا دَنٌّ من الحُبِّ طافـح

ألا إنَّ أيَّام الشـباب التى مَضَتْ
بكينا عليهـا فالدمـوع سوافـح

ولازال فى القلب الشَّبَاب الذى مَضَى
كمـا كان والاشواقُ مِنهُنَّ جامـح

وأبهَجَ منك النَّفس لمـا تبَرَّجَتْ
لدى البركة الغيـد المـلاح الصِّبائـح

سَبَحْنَ على ضَوْءِ النَّهـار ورُبَّما
صَبَحْنك بالأهـواءِ اذ أنت سابـح

تجـرَّدْن الا مـن شفوف رقيقـةٍ
خَصَفْن بها والحُورُ هُنَّ الرواجـح

تَذَكَّرت ياخِلِّى الفتـاةَ التـى لهـا
خِصـال المها والخاطِرِ المتَسـامح

وَيَمْلأ منا جانبَ الكَفِّ نَهْدُهـا
اذا نَفَحْتَه وهـو للثوب نافـح

وقد زوَّدتنا سـاعة البَيْن قُبْلَةً
وجدنا لها دِفئاً كـأن باح بائـح

متى نحن شِئنَنا عاوَدَ القمَ طَعْمُهـا
على حَذَر لا يَنفضَحُ العِرْض ماضـح

كـأنَّ بـه تفَّاحـةٌ عَبنمريّـةٌ
لهـا أرجٌ أنفاسـها تتفـاوح

وذلك رزقُ الله باليُسرِ سـاقـه
إلينا ويَومُ الصَّومِ أغبَرُ كالـح

ذَكَرْت بهـا ذاك الرّبيـع الذى مَضَى
بلَندنَ هَيْهَاتَ الشّـبَاب المبَارح

أجِدُكَ تَزْهُوك الصّبابـة بَعْدَمَـا
تَولى الصبا وانجاب عنك المسـائح (١)

أتذكر لما ثَجَّ وَابِل روضـةٍ
وللّوصْلِ رِفْدٌ عِنـد هَيْفَاء سـانح

وليلتنـا اذ مَجَّ فى فَمِـك النّدى
نَدَاهـا ومِنْهـا طيّبُ العِطْر فائح

تُضِيءُ لكَ اللّيـل التفاتَةَ جِيدهـا
كأنّ بريقَ النّحْر منهـا مَصابح (٢)

وترنو وبالخدّيـن تَدْنُو وثغرهـا
يَقـول أليس العيش فيـه المفاسـح

وقالـت ألا إنّ النسـاء غـوادر
وما إنْ إلـى العليـا لَهُنّ منـادح

كـأن وَهَبْتكَ العمْر وهـى سَخيّةٌ
بـه لاتبـالى والنفـوس شـحائح

---

(١) اى شعر الشباب الكثيف الفاحم .
(٢) مصابح : مصابيح .

وأخلفتها ميعاد يوم لقائها
بملكك والدنيا سنيح وبارح (١)
ولامك فيها لائم وكأنه
لما نلت منها حاسد القلب كاشح
وصادفتها من بعد دهر ولم تكن
تظن بأن تلقاك والقلب صافح
وتسأله لم تنس بعض الذى مضى
ولم ينسه والدهر فيه المتارح
ولازال فى الاحشاء من ذكر عهدها
هيام وتبريح من الوجد قارح
ألم تر أنى لا أزال مع النوى
طريحا وقلبى للشكيات طارح
صبرت على مر الليالى بكل ما
يسوء فآن الآن أنى فارح
ولو شاء رب العرش أهلك بطشه
أعادى إن القلب يرجو وطامح
إلى نيل غايات الأمانى إنها
لعمرك عند الله والله مانح
عليه توكلنا وأخبت سرنا
إليه وعنا لطفه الوزر ضارح
وصلى على الهادى النبى إلهنا
صلاة بها تزكو وتصفو القرائح
وسلم تسليما مدى الدهر سرمدا
كثيرا ورب العرش منه النوافح

(١) بملكك اى وانت قادر متصرف والميم مثلثة وبذلك جميعا قرىء فى سورة طه.

به قد توسلنا وفيه نجاتنا
ومن فيضه فينض المحبين مائح
وقلت سأنوى الحج بر بوالدى
ووالدتى والحج فيه المصالح
وقلت سأنوى الحج من عام قابل
لوالدتى والله إن شاء سامح
ومن بعدها أنوى أحج لوالدى
فهل أنت ياخلى إلى الحج رائح
إن الله يرجعنى معافى موفقا
فلله عندى والرسول ذبائح
نذور بها ثوف إلى الله علها
تذاد بها عنا النوى والنواطح
وقد تفتح الفتح الجليل الذى به
تنال غدا عفو الاله الفواتح

* * * * *

وأطربنى من جانب النيل نخلة
وما ضمنت فى القفر تلك الضرائح
وكم لك فى جنح من الليل عبرة
ترقرقها من راح روحك راشح
وكم لك من ذكرى غرام وحنة
تحن بها إذ أنت هيمان سائح
أتذكر من ذات الدلال انشراحها
اليك بود القلب حين تصافح

واعراضَهـا اذ أعرضت عنك يافتى
وإقبالهـا حَسنـاءَ والجيد واضح

وإن لهـا فى الحاجِبَين لصَولَةً
وحُكْماً وفى العينين باللّهو مازح

وتَبْسِم من ظَلْمِ الثّنايا بمُزنَةٍ
سلافيةٍ دلَّتْ عليهـا الملامح

ولذّكَ شِعرٌ من أبى الطيب الذى
سما فارس منه على الدهر رامح

وروّى ولم يَرْحَمْ من الناس رُمحَه
وراح ومنه الطائر الفَرْدُ صائح

وقد زعمت ليلى بأنك مثله
زَمان الصّبا ريّانُ والبُسْرُ بالح (١)

وذِكْرُكَ الخَوْدَ الرَّجِيحة ليمَّها
إليكَ وكادَتْ بالغرام تصارح

وتَرْشيحَها ذاك الرُّضاب الذى هَفَتْ
لوامعُ منه كالسّراب لوائح

إذا ماهى احلَوْلَتْ تبلّج وجهُها
وإتساقُها فى النّمَين بالودّ لامح

وإن هى لم تَحلَولْ غامت بوجهها
كما هَاجَ بالبَحرِ الرّياح اللواقح

وتَحسِبها بِلقيسَ والصّرحُ لُجّةٌ
ومن دونها زُهرُ النجوم السوابح

---

(١) البسر : البلح .

شـديدةُ أسـر النفس لكنَّ قلبهـــا
برقٌ ومنـه القســوريُّ المماصـح (١)
وما كفرتـــك الأنعــم الثرة التى
حَبَوْت ولكنَّ الليـــالى فـــوادح
وذكرِكَ الحســناء أيــّامُ ودّهــا
وكــان لها عَهْدٌ مـن الودّ صــالح
ألا انهــا والله لازال فى الحَـــشى
هَواهــا وان المـرءَ ماعَاشَ كادح
وإن لهــا لَوْناً كريمــا ومنظـــراً
وسيماً ومنها القلــب ماشــاءَ مــادح
وكم لك مـن سرٍ كتمـت ولوعـــةٍ
كظمتَ وطولُ الصـبر للمرءِ فاضح
ودرّةِ شعرٍ قــد نظــمت يتيمــةٍ
لها ألقٌ فى زَنْدٍ فكـرك قــادح
وأهتِفُ بالعَشْرِ الطّوال ويوســفٍ
أريد خشــاةَ الله واللّيــل جانـح (٢)
وصلّيْت خَمْسى أســأل اللهَ خاشــعاً
وعندى صلاحُ النّفسِ والدّهر طالـح
وإنّ لديك البرّ للأهلِ والرّضــــا
عن الناس والعَفْوُ الصحيحُ المصــالح
وخَوْفُ الالــه البرُّ أجْمَعُ فاعتمـــدْ
عليـه وعند الله تلْقى المناجـــح

(١) القسورى المماصح : الشجاع القاتل .
(٢) هى من البقـرة الى هـود .

تَذَكّرت جيراني وأهلي ومعشري
وروضاتِ جنّاتي وحَيثُ أكافح
وسبّوحُ قدّوس وقد هينمت بها
من القوم من بَعدِ العشاء التراوح (١)
ولازلت مشبوب الشباةِ مجاهدا
يُناطِحني كَيدُ العدا وأناطح
وقد علم التُربُ الذي فَوقَه الحصى
بِقُربِ الضريح الفَردِ أنّيَ ناجح
وأنّي اذا ما شمّر القَومُ لم يزَلْ
لدى الجدّ منّي شَمَّرِيٌّ مُشايح
ومازال منّي للخطوب وريبها
بَنبلِ سهامِ الله للقَومْ ناضح
ومازال عندي للقريض معاوِدٌ
بريدَ سِرّي الوجدانِ للشوق شاطح
وحَيّتك تدنو بالحرارة إنها
تَجيش بها جَيشَ القدورِ المطامح
وقد عَرَفَ الشّيخ الجليل جمالها
وأنّ لها عَينَيْ غَزالٍ فسامحوا
وقد صَرّف الآيات ربّك للورى
وقد دارستناها الغواني الصرائح
وفي الشّيخ من عهد الجدودِ صَبابَةٌ
وكانوا وَهمْ أهل الكمال الجحاجح

(١) اى التراويح . تحلف تنوين سبوح او تجر قدوس على الاضافة الى سبوح من الدعاء سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

وكانتْ لهم كأسُ الوصـــال رَوِيَّةً
وبُعْدُ المـــدى والسؤدد المتـــراوح
تذكـرت عَبْد الله شَيْخـى ولايَزَلْ
عليـه سَحابٌ مـن رضـا الله دالـح
ويذكرنـــى سَمْت الشبيبىِّ سَمْتُـه
عليـــه التقى والبِرُّ فى الوجـه ساجـح
وقدْ كـان يَرْعـانى وَكـــان يُحِبُّنى
ومـن سِرِّه فى سِرِّ روحـى مسَابـح
وكـم قد غَرَفْنا غَرْفَـة العِلْم عِنْده
ولازَال مِنَّـا غـارِف العِلْم مَاتِـح
وإذْ أمْدح المَدْح الطِّوال الـذى لـه
يقامُ وكانتْ مـن هـواى المدائـح
وصَوْتُ ابنِ عَبْد العال فيه حَماسـة
ونَشوة ذى بِشْر وفيـه تفاصُـح
وان ذكـر المهدىَّ أبـرق طَرْفـه
وكاد بـه يَلْتقى الكَتيبــة ناطـح
وقــد كـان آبـــائى رجـالا أعِزَّة
فعنهـم وقد دار الزمـان أناصـح
وأبْصر مـن خلف الزجـاج الذى لنـا
وجـوه الفلانيِّــات والنيِّـل نـازح
وقــد برزت أكتافهن وقــد بـــدا
مع الشدَّة اللِّينُ الذى هـو جانـح

---

(١) اى يثرن الغبار ، من قوله تعالى : والعاديات ضبحا .

يُغَرْبلن بالأيدى ويُسْرِ عن فى الخطا
ويَعْدُون أحياناً وهُنَّ ضوابح ( )
وكدَّت أشم النيل لما تنفّست
اليَّ بأنفاس الشَّمال الروائح
وجَلْجَل طَبْلُ القَوم فى وَضَحِ الضحى
وخَفَّ إليه الذاكرون الوحاوح
بَحىٍّ وبالقيوم والله دائم
وقالوا أبو « القيمان » بَحْرك طامح [1]
وقد نَظم الكرديُّ قَبْل قصيدة
وقد جاء فيها « التراهات الصَّحاصح » [2]
وذكَّرنى الكرديُّ أيامَ دَارُكم
لَدَيْها النَّدى والوَزْن بالقِسْط راجح
واذ يَرْهب الأقوام جانب شَيْخنا ال
كبير وقمريُّ الأراكات نائح
وعَنِد القرى جاءت صَوانٍ كبيرة
تَنُوء كما ناء السحاب الدوالح
حباها تِلادُ الطيبين وزانها
مكارمُ آدابٍ هناك صحائح [3]
واذا لوحك الهجليجُ بالجير مشرق ال
عمار وماء البيرِ للجير ماسح

---

(١) قال المادح : ابو القيمان بحر طامح واسمه الجيلى ابا صالح .
(٢) اشارة الى قول الكردى رحمه الله يصف شعر احدهم فى كلمة له طويلة « وما هو الا الترهات الصحاصح » او « ولكنهن الترهات الصحاصح » ما ادرى ايهما فلينظر .
(٣) صحائح صفة لمكارم .

وإذ يكتب القوم المحاية إتهما
شفاء" وخفقت للصلاة الجوارح

ودارسني رُبع الطويلات أبجَر
عليه صَفَاءُ النفس والسَّمتُ صالح

وصَوت ابن نور الدين رَقَّ وكم لنا
تَطيبُ إلى خَيرِ الأنام المدائح

بـه تنكشفُ الجلى ونَعلو على العدا
وتستتر بالستر الجميل الفضائح

بجاهِ النبى المصطفى إننى له
مُحِبٌ ومشتاق وبالمدح صادح

عليك صلاة الله ثم سلامه
ألا يارسول الله انى طامح

وأنت لنا يَوم الحساب وَقبله
اذا ما سألناك الشفاعة لامح

عليك صلاة الله ثم سلامه
صلاةٌ بها نَنجو ويَرْبح رابح

على السَّيد الهادى الذى نور هَدْيه
على الكَوْن فى لَيل الضلالات لائح

به قد توسلنا نريد به الغنى
غِنى أنْ لنا فى الطيبات منادح

وما كان من يرجو به الله سائلا
يخيب ولو كادت تطيح الطوائح (١)

* * * * *

(١) اى ولو كادت تلعب به الحوادث التى تطيح بالناس . ولك فى تطيح ضم التاء وفتحها (ثلاثى ورباعى) والله اعلم .

قرية وبندر

قال الشاعر توفيق صالح جبريل (1)

أيا دامرَ المجذوبِ لا أنت قرية
بداوتها تبدو ولا أنت بندر

وأجاز صاحب الديوان ....

بلى أنا حقّا فوق ذلك كلّه
ودوني خرطوم وبارا وبربر

ويا دامرَ المجذوب أنت مليحة
تذكّرتها يابعْدَ ما أتذكر

وفيك بنو المجذوب أبناءُ بَيْرقٍ
وابناءُ عبد الله والفضل يُذْكَر

وفيك جليسُ المصطفى كان دَمْعه
من الشّوقِ لمّا شامه يتحدّر

وفيك عميدُ القوم لما أراده
بَنُوه على تركِ ابنِه وهو أكبر

تذكّرْت ياخلّي ليالي مبَيْتنا
بِمَسْجِدِها والقومُ بَاكٍ وذَكّر

وكان ابنُ نور الدّين نَشْوانَ صَيّتاً
وكان زَميلي في الدّراسة أبْجَر

واذ داركم فيها السّماحة والنّدى
ووالدُك الحَبْرُ المَدِيحَ يُحبّر

---

(1) رحمه الله رحمة واسعة .

واذ أنا فيكم مثلكم وحفظتمو
ذمام أبي إني لذلك أشكر
أتذكر شرحاً قد نقلناه مرةً
وللقرشيّ بالعروض تبصّر
فدونك أبياتاً إليك بعثتها
وهيّجني صوتٌ رخيم معبّر

* * * * *

لقد هلهل الشعر امرؤ القيس إذ بكى
ومن دونه خوص الركاب وأوجر
ولما بدا حوران والآل دونه
نظرت فشاق العين ياصاح منظر
(عليك صلاة الله ثمّ سلامه
ألا يارسول الله إني) أشعر
(صببت دموعاً يشهد الحزن أنها
أتت من فؤادٍ بالهوى يتفطّر
(فؤادي بحبّ المصطفى متنوّر
ولي فيه أغراض إليه سأذكر)
وطارت بنا طيّارة ذات خفّة
وقد كاد منها الباب لايتنكّر
وشاقتك ليلى حينما قد تبرقعت
وكاد محيّاها من النور يسفر
تقطّع منها النور لما تلطّفت
ولاح الجبين واطمأنّ المخصّر (١)

(١) اشارة الى قول الشيخ رضي الله عنه :
وومضة برق ام ضياء جبينها تقطع منه النور اذ تتلطف

والقتْ على الكرسيّ للنوم رأسها
الى أن بدا جيبُ القميص المقوّرُ
وخالط شفّافَ السّواد بياضُها
كأن على الخدّ الندى يتقطّر
ترى حدقاً يغفو وأنفاً وجانباً
من اللّم يبدو وهو شيحانُ أزور (١)
(كأنّ على لبّاتها جمرَ مصطلٍ)
وفى قدَميها جمرُ تبرٍ يُجمّر
ومدّت بساقٍ عبْلةٍ وكأنها
بذلك لاتعنى ولا تتستّر
ألا إننا عند الصبابة والهوى
لأجل مديح المصطفى نتبختر
ونمشى به نلقى الكماةَ بحدّه
كما قد مشى للحرب ليثٌ غضنفر
كمشى سماكٍ يومَ أحدٍ مباهياً
بسيف رسولِ الله والناسُ تنظر (٢)
وشدّ لكىْ يلقى العدوَّ برأسه
عصابةَ موتٍ والصحابة حضّر
أولئك أنصارُ النبىّ الألى بهمْ
أقيمَ عمودُ الدين والحربُ تسعر
بنو قيلةٍ أهلُ البسالة فى الوغى
لهم يومَ بدرٍ والقليبِ وخيبر (٣)

---

(١) شيحان : مشيح منصرف .
(٢) هو سيدنا ابودجانه سماك بن خرشه رضى الله عنه .
(٣) القليب كان ببدر ولك رفعها .. اى بهم نصر النبى صلى الله عليه وسلم.

ويَوْمَ حُنَيْنٍ حينَ أحْمَوا وَطِيسَهُ
ومن قَبْلُ قَدْ كادتْ هَوازِنُ تَظهَرُ
وأشرَقَ خَيْرُ الناسِ يَنظرُ فِعالَهم
ويَحْمَدُهُ لمّا تَداعَوْا وأشعَروا (١)
حَبَّبَنا رسولُ اللهِ من أوّلِ الصِّبا
الى الآنَ نَرجُو في هواه نُعَمَّرُ
عَرَفنا بِهِ اللهَ العَليَّ وإننا
الى اللهِ نَعْنُو والقُلوبُ تَطَهَّرُ
ولمّا صَدَحْنا بالدُّعاءِ تهزّمت
إلينا دياجيرُ الظّلامِ تَقَهْقَرُ
نُصَلّي بأصواتٍ خَفَضْنَ تأدُّبا
إليه جميعاً خاشعينَ ونَجْأرُ
نُصَلّي على الهادي الشّفيعِ نَبِيِّنا الـ
بديعِ وآلافُ السَّلامِ تُكَرَّرُ
الى أن رأينا سَوحَهُ حينما بَدَتْ
تَلُوحُ وأنوارُ المدينةِ تَنورُ
سَمونا لهُ لما دنونا صَبابةً
وشامَ سَناهُ العارفونَ فكبّروا
وأنظرُ من شُبّاكِ غُرْفَةِ فُندُقي
الى القُبَّةِ الخَضْراءِ واللهَ أشكرُ
وأرْتقبُ الوَقْتَ الذي فيه يأذَنُ الـ
جَنابُ إلينا الهاشميُّ المُعَطَّرُ

---

(١) قالوا : ياللخزرج هذا كان شعارهم رضى الله عنهم .

وإن له نـــورا الى العرشِ ســاطعــاً
تشــاهده العينــانِ والقَلبُ ينظــر (١)

وحاشى إلــه العــالمــين بَرَدْنــا
ونَحن لــه فى حبّــه نَتَفَكــر (٢)

* * * * *

ألا ليت شــعرى هــل أبيتــنَّ ليلــةً
أمامى بأرضِ الــروم كَوبٌ ودِفتَر

فانَّ بــلاد الروم فيهــا محاســـنٌ
وان بهــا العيشَ الرخيــم ليُخبَـــر

وأنــا لنبغى فى الحيــاةِ مكاســبا
وما مَكْسَبٌ الا القتــالُ المشمّر

وإنّــا لنلقَى الحادثــات بأنفسٍ
اذا مَسَّهـا لَذعُ المصيبات تَصبِــر

* * * * *

وقــد جــاءنى أن الرجــال تَخَيّروا
الى الأمــر مَحجوباً وقــد يَتَخَيّر

وكلُّ أناسٍ عُصبَةٌ ومُعَســـكرٌ
ونَحن لعمــرى عُصبَــةٌ ومعســكر

ولاشكّ محجــوبٌ أدِيــبٌ مُهَذَّب
وكــان لــه فى سابــق الدهر مفخَــر

ومن قَبْل رُزْنــا كــل ذى خُنزوانةٍ
إذا ما أرينــاهُ المــروءةَ يَضجَــر

---

(١) اشارة الى قول الشيخ رضى الله عنه فى لقد طال شوقى .
(٢) اله مثلثة الهــاء اعــرابا .

ألم تر للدُّنيا شَجَتنا شجونها
وإن التزام الصَّبْرِ أجدى وأجدر
وصَوْمُك عن ذِكرى أمورٍ كثيرة
كصومك يَومَ الشك لاشكَّ تؤجر

* * * * *

جفتنا لعمرى أمُّ عمروٍ وربما
إلى وصلنا الحسناءُ قد تَتَعَطَّر
وما أمُّ عمروٍ غير جيداء دارها
بحيث يَفيضُ البَحْرُ والماء أكدر
وقد أطربتنا بِنتُ قومٍ طويلةٌ
على الصَّدْرِ منها برتقال مكَوَّر
وفى الشَّفةِ العَذراء منها انهدالةٌ
وفى المَشْى لما أن مَشَت تتحدَّر
تَغيمُ بعينيها وتصحو وإننا
لنَرْنو إليها وهْيَ لاتتأثَّر
كأنَّا إذا نرنو إليها نَغوص فى
بِحارٍ بألوان الفراشات تَزْخر
وقد جَلَستْ يوماً إلينا ولانرى
ونَحنُ نصوغ الشعر والشِّعرُ يأسر
فلما رفعنا طَرْفنَا وإذا بها
عجبنا لعمرى شَدَّ ما قد نفَكر
وقد جزعت يَوْماً لالمام حادثٍ
ألمَّ ولم تَشعُر به وهى تَقدِر

وقد رشحت دمعاً لها فعرفته
وكدتُ عليها رقة أتفطر

أخذت بكفيها وقلت لها اقعدى
فمنك بكاء الطفل لايتصور

وقد عرفت عطفا عليها وطأطأت
ورام ابتساما ثغرها وهو يفغر

الى أن حملناها الى دار أهلها
وما أحد من سائر الناس يشعر

أردنا لها سترا وما زال دأبنا
قديماً على جاراتنا تتستر

وآت بفستان أنيقٍ ومنظرٍ
رشيقٍ وزنار عليها مزكر

وتضحك كالطفل الغرير وإنها
لكالطفل إلا أنها هى أوثر

وقد كان من أم البنية قبلها
إلينا بعينيها أسىً وتفكر

وكان ينوء الطرف منها بضاحكٍ
على حسراتٍ غورها ليس يسبر

وقد قبلتنا ساعة البين قبلة
بلا ظمأٍ تخشى العيون وتحذر

وتسلو وهل يسلو فؤادك بعدما
سطرن به من قصة الحب أسطر

وهيهات هيهات الزمان الذى نأى
وعيشك هذا دأبه يتغير

* * * * *

وجاءَتْ إلينا بالكِتـــاب وطَيَّــــــه ال
سقودُ رَدَاحُ المُقْلَتَيْن سُبَيْنطـــــر

أتت بكتـــابٍ مـــن رئيسٍ محاســــب
دقيــقٍ عــلى أعبائــــه متســـيطر (١)

ترى تَعَبَ التفــكير فى نظراتــــــه
ولأيــاً اذا رام الحــديــث يُعَبِّــر

ويَكشر مُضْنَنىً بابتســـامٍ وقَلْبـــه
على ثِقَةٍ بالأمـــر ســاعة يكشـــر

وقــد علِمت أن بشرَّتنـــا بوجههــــا
وإن تك جــاءت بالعطــاءِ تبشـــــر

وقلنـــا لهـــا أهـــلا وسهلاً ومرحبـــا
فإنَّك نعــم الزائــــر المُتــــزوِّر

وهــل لك فى بـــرد الشراب فإنــــه
يُجــاء بــه للضَّيْف ســاعة يحضـر

فقــالت ألا كـــلا ومدَّت بدفتـــــر
لإمضائنا يَغْشَىَ الصَّحيفة خِنْصَــــر

وان قلــوب الغانيـــات رَقيقـــــة
وإن عزيز الصَّيْد إن ريــع يَنْفِـــر

وهمت بَكَلا لحَظَنـــــةً ثــم راجعت
حجاهـــا ومن قَبْلُ ازدهـــاهـــا التكبُّـر

وقالــت نعــم ثــم اطمأنــت بمـــجلس
يُطِلُّ علينـــا وجههـــا المتحــــضر

(١) اى هو متسيطر ولك ان تقول متسيطر وما البتنا اجود وفى النحو يجوز النصب والرفع والجر جميعا ههنا والله اعلم .

اذا ما أرتنا الثغرَ منها تألقت
عوارضه حتى فؤادك يُحنبَر

وقد نَمرتنا غُرّة فى جَبينها
وشَعر" لها حرُّ الضُّفيرات أشقر

وقد فرقته من مُقدَّم رأسها
الى حَيث منه شُعبتان المؤخر

يرى منهما يافوخها وقذالها
بحسنهما حُسّانةُ الجيدِ تفخر

عظيمة أكتاف طويلة قامة
كأن نَخلةً" منها إلى الباب تَخطِر

وماشفّ للعينين شيئاً قميصها الـ
ذي هو دون الركبتين مقصّر

سوى ظَلَل من خلفها قد رأيتها
يطول الأسى من ذكرها والتحسّر

وإن لنا فى شاطىء النيل منزلاً
رفيعاً وفينا للطواغيت خنجر

وفينا وداد من يروم ودادنا
فماء وليمون وثلج وسكر

* * * * *

ألا قد سباني البابلى المعصفر
ورنّم عليه الخال ريّان أخضر

ألا ان قلبى باسم متفائل
وشعرى كشعر الاولين مُحَبّر

ولا أحسب الاسلام إلا تحية
سلاماً سلاماً والقلوب تطهر
وإسلامَ نفس المرء لله كلها
وحرّية التفكير حين تفكر
وحبك بيتَ الله والدينَ كله
وحبّ النبي والحبون زوّر
وقد كان فينا أهل مصر جماعة
وحبهمو للمصطفى ليس ينكر
وقد رافقت عماً أو أباً لها
فتاةٌ به ترجو لدى الله تؤجر
كسيحاً يجر الركبتين وكفه
يسير بها يبغى الرضا لايفتر
تسير بإبريق الصلاة أمامه
ويرنو الى الله العلى ويشكر
ومن طلب الدين الحنيفَ ولم يقل
بحبّ رسول الله لاشك يكفر
فلا تسمعَنّ للجاهلين مقالةً
ألا إن امر الجاهلين متبّر
ألا ياخليليّ اللذَين تواصيا
ألا فاعلما أني لبيب مفكر
وأني مذ رُزت الأمور وجدتها
تشابه منها جوهرىٌ وجوهر
وقد زرت بيت الله وازددت أنني
بطيبة فى أنوار أغنمَر

وأنى فيهـــا قــد وجــدتُ سكينــةً
حبـانى إياهــا الجنـــانُ المطهـــر
فلا تحســـبنَّ الأمــــر هَيْناً فإنــه
يهــون بصـــدق النيـــة المتعســر
وليس سبيل الدين ياصـــاح مظهـــرا
اذا غَرَّ طـُـــلاّب الديانــات مظهـــر
ولكنـــــه سِرٌ خفــى وشقّـــة
مـن الســير لايَقْوَى عليهـــا المُسَيَّر
وقــد قيــل فى التوحيـد قدمـــا وخطّه
شـــيوخ كثــير مِالكىّ وأشـــعر
وان عطـــاء الله منحــــة مانـــح
وهَوبٍ وليســت باكتســـاب تقــدّر
ولازالــتَ اسرارُ المهيمـــن أمرهـــا
بغـــير ســـنا الايمـــان لايتَصَوَّر
وانـــا جميعـــا ناظـــرون لوجهـــه
غـــداً إننـــا حقـــاً اليـه سنحشَرَ
وضَلّ أخــو شِرك يراهـــا نهايـــة
وأنّ امـــرأ يفـــنى عشيّة يقـبـــر
ولا أحــد" يخلــو مـــن الشرك إنـــه
خَفِىٌ لــذا يغلــو النفاق ويكثـــر

* * * * *

(ومــن عرف الايـــام معرفتــى بهـــا)
كذلـــك قـــال العبقـــرىُّ المشهـــر

أسِيتُ لـه فى مصـر اذ هـو يَائس
وفى الشـام كادت ذمـة منـه تخنفـر

ولمـا أتـى أرض العـراق تنمـرت
(أفى كل يـوم تحـت ضِبنِى شُوَيْعر)

ولما استوى دَسْتَ الخلـود تَسَوَّروا
الى أن هـوى منـه صريـع معفـّـر

وقـد نمّـه طـه وأحْسِبُ أنـه
تحامـل شيئاً وهـو بالأمـر أبصـر

وقـد بلـغ الشيـخ العلائىُ رتبـة
من الفَضْل الا أن أحمـد أشعـر

وكـان الوزيـر المغربىُّ صديقـه
وكانت له مـن جيـد الشعـر أبحُـر

وانـت بعيـد الشـوق مشتبه الهـوى
من الوَجْد لاتكبـو ولاتتعثـّر

وان الذى يصـبو كمـا قـد صبوت لا
لايزال أخـا دمعٍ مـن الشوق يقطـر

* * * * *

ونائبـةٍ فى البرلمـان جديـدةٍ
جلاها لنـا مـن جانب الخدر منبـر

نهنئهـا بالفـوز إنـا يَسُرُّنـا
مـن الوَطَنِ المستقبـل المتحـرر

ألا قـل لمحجـوب تحيـة شاعـر
وأنت قديمـاً شـاعر" ومفكـر

أردنـــاك للجُلَّـــى فكـــن من حماتها
ولازلت للجـلى حُـمَيْدانُ تذخـــــر

وعش يا أبـا سـامى مليـّـاً ولاتَـزَلْ
أمـــيراً عـلى ود القلـوب تؤمّـــر

وقـــد سرّنـى أن الخليـــل مُحَمّداً
تخيّرَ إذ للأمـــر ورد ومصــــدر

عرفت لــه الودّ القديــم ولــم يــزل
على عهـــده والحـــر لايتغـــير

وكنـا زمـــان الدرس نَقصـــد داره
ومنـــزلـــه رَحْبٌ لنـــا وميســـر

* * * * *

بنـــو وطنـــى قلبـــى بهـــم مُتعلق
إذا جـــنّ ليـــلى والخليُّون سـمَّر

تذكـرت أهلـى الصـالحين ودامـرى
ومَرْقَد آبـائى الذيـــن تخـــيَّروا

تذكرتهم والبيـدُ بينـــى وبينهــــم
وصبْحاً وظُهْرا والعَشـــيَّة نمْطر

ولاحَتْ بُـروق فى السـماء مُخِيفَـةٌ
لهـا شُعَبٌ زُرْقٌ الضـياءِ وأنهـــر

ومنهنّ ذو أغصنــان شَوْكٍ كأنـــه
بــه شَرَرٌ مـن ملّـــة الجمـر ينتثر

يروع كمـا عـين الكمينةِ روّعــــت
بجاحمها لمّـــا إلى الطـّـوب ينظر (١)

---

(١) الكمينة هى التنور الذى يصنع فيه الاجر .

تذكــرت ترداى أخــى بـــين منـــزل
وحَيْث لنــا جَرْفٌ بسَوْبَــة أغبـــر

* * * * *

ألا إنّ توفيــق بـــن جبريــل هاجنـــى
إلى الشعر منـــه بَيْتٌ شـــعر محبّـر
وتَوْفيــق عنــدى شــاعر ذُو أصـــالةٍ
مُجِيدٌ شــديــد الوَجْدِ عنــه يعبـّـر
وذكرنى أيـــام دامـــر قَبْلَهـــا
زَمانٌ لنــا فى جانــب القاش أغْضَــر
زمــان الصــبا غضٌ وأهلـــك كلهـــم
حُضُور وإذ ريــب الحــوادث مُقْصِرُ
وإنـــك قــد اصبحـــت ياصاح مفردا
وما أحــدٌ مــن بينهــم لـــك ينصـر
وقد عَلِمـوا أن لو دَعَوْك أجَبْتهـــم
ولكنّهـــم خَافُوا وخَامُوا وأدبــروا
عسى صـــاحبى يَحْنـــو علينــا زماننا
كما قــد حنت فى ســالف الدهــر أعصر
تذكـــرت ياخلتى ليـــالى مَبِيتنـــا
بتَاكَة إذ كنـــا بتاكـــة نَسْمُــر
وإذ عـــين تُوتيــلٍ رواءٌ وأهلنـــا
هنـــاك ســـواءٌ غائبـــون وحُضّر
وزرنـــاكمو فى بيتكــم ذات مَـــرةٍ
وكان هــوى قلبــى قطــار مزمجـــر

نسير معا تف تف تنف تف تنف تنف

وأنت نبطشيٌ وأنت ستقطر

وزرناكمو ليلاً بخرطومَ مرة

وكان مع الخبْز الحليب المُسكّر

وأمّك عادتنى وقد كان برّها

علىّ كما مدّ الدّميرة يزخر

وقد قيل عَينن" أوشكت أن تصيبنى

غداة رثيتَ الشيْخَ صوتى يجهر

أتذكر هذا إنّ هذا جميعه

مضى وهو فى قلبى لعمرى يُدّخر

وإنى كريم أريحى مُرزّأ

بشكر الذى أهواه قد أتفجر

ألم ترنى لما نأيت تعطفت

إلى وطنى منى ضمائر غُوّر

وراجعت أيام الطفولة إنها

بَعيد ولكن عهدها هو أنضر

وليس كحبٍّ الوالدين وإنما

زمان الشباب خِفّة وتعثّر

وتعطو إلى الحب البعيد نفوسنا

تُريد وراءَ الغيب ما الغيب يَستتر

نريد الخلودَ المستحيل وقد نرى

مصارعنا يَدنون إذ نحن نكبر

وإنّ لنا عند النساءِ مودّةً

نريد بهن الأمّ هيهات نَظْفر

(ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة)
بحيث الحصى يحصى وحولى معشر (١)

اذا ما أفاض الناس والله فوقهم
منيف بعين يعملون وينظر

أقول لخلتى هل تذكرت قومنا
عشية اذ هم بالسفينة سيروا

وقالوا توكلنا وثنوا بردف
وصلوا بمشتاقين والله كبروا (٢)

وقد جلسوا فى بلغ جلسة الرضا
ومن بعدها حر المديح تخيروا (٣)

(فؤادى بحب المصطفى متنور
ولى فيه آراب اليه سأذكر)

(وحاشى جناب الهاشمى يردنا)
ونحن به نرجو النجاة وننظر

(عليك صلاة الله ثم سلامه
ألا يارسول الله إنى) أشعر

بنورك فى هذى الدجنة نهتدى
ونهواك حقا والصلاة نكرر

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما
ولله الحمد أولا وأخيرا وبه التوفيق .

---

(١) أى بمزدلفة .
(٢) اشارة الى مدائح الشيخ رضى الله عنه: عليه توكلنا ويرده السلام وصلينا مشتاقين
(٣) اشارة الى مولد الشيخ رضى الله عنه بلغ اللهم روحه الشريفة... الخ.